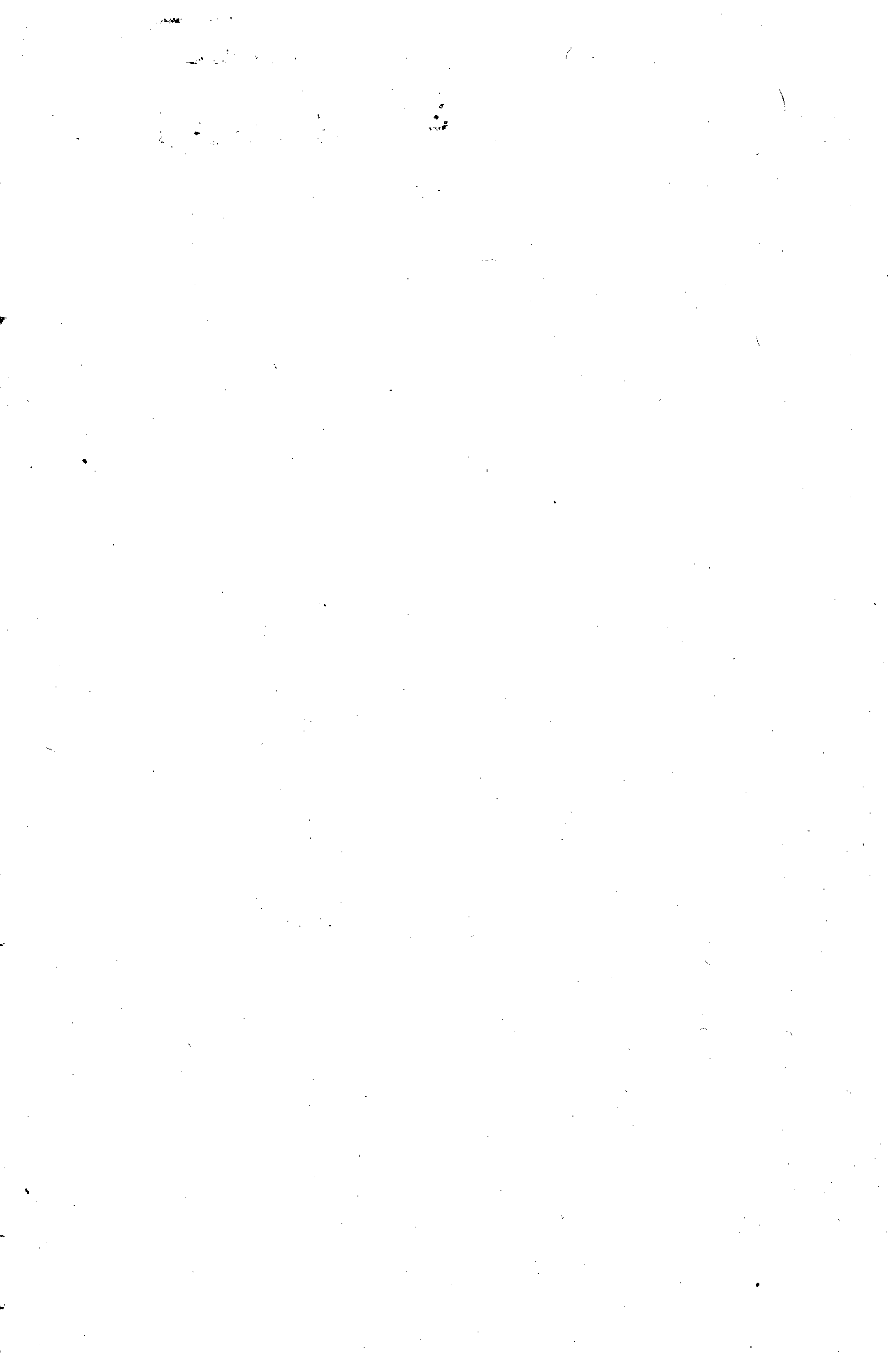
الرافعي ومَيّ

تأليف

عبد السلام هاشم حافظ

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على الرسول الكريم . وبعد :

فقد يسأل سائل : لماذا تعمدت الجمع بين دراستين ، عن أديب العرب الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، وعن الأديبة القديرة الآنسة مارى زيادة المعروفة باسم «مى» .. وماوجهة النظر الأساسية فى دراستى عن كل منهما ليضمهما هذا الكتاب ؟.

وهنالك أكثر من سبب .. فالرافعى ومى كل منهما له نهج وحده فى الأسلوب الأدبى : هو فى دولة الأدباء ، وهى فى دوحة الأديبات .. وكلاهما مؤمن .. سعى سعيه للحفاظ على بيئة الشرق العربى ومقدساته ولغته العربية الأم .

هو المسلم التقى الغيور .. وهى المسيحية القديسة الواعية ..

وهناك العلاقة الروحية التى كانت بينهما والعاطفة السامية التى ربطت قلبيهما من أول لقاء ، فبادلته هى شعوره ، ولكن فى تحفظ شديد ، اذ كان وضعهما لا يسمح بأكثر من هذا الستار الذى ضربته هى حول نفسها خشية الظنة وألسنة القوم التى لا ترحم .. حتى ان عاطفتها تعتبر الحلقة المفقودة فى حياتها .. ولكن هذا الحصار الذى رضى لها به الرافعى بالنسبة لغيره ، لم يكن ليرضيه هو بالنسبة لنفسه .. فكان أن

ثارت كبرياؤه وهجر الحى البهى ، وظل قلبه معلقا به لا يجد عنه مصرفا .. وقد استوفينا تبيان ذلك فى الحديث عن « حب الرافعى » من هذه الدراسة .

ولقد عاش الرافعى ومى فى عصر مبكر وسابق لمثـل عاطفتيهما أن تزدهر وتأتلف وتتعانق .. وفى ذلك ينطوى سر مأساة « مى » وسر غضبة الرافعى وآلامه .

واننى فى هذه الدراسة قد حرصت جهدى على الأمانة التاريخيـة فى بيان حياة هذين العلمين مستمدا من مؤلفاتهما ورسائلهما أضـواء على الواقع ومستندا فى مراجعاتى على مؤلفات صاحبى الترجمة هذه ، وعلى كتابى « حياة الرافعى » للاستاذ محمد سعيد العريان الذى صدر فى عام ١٩٣٨ م « وحياة مى » للاستاذ محمد عبد الغنى حسن الصادر فى عام ١٩٤٢ م . وعلى بعض مقالات منشورة فى مجلات أدبيـة أهمها « المقتطف » و « الهلال » و « العالم العربى » التى تصدر فى القاهرة .

ع. هـ. ح.

"وسيأتى يوم إذا ذُكِر فيه الرافعى قال الناس:
هو الحكمة العالية مصُوغة فى أجمل قالب من البيان"

الزعيم مصطفى كامل

القسم الأول

مصطفى صادق الرافعى



الأسرة تستقبل الفجر

أسرة الرافعى أسرة عريقـة ومعروفة فى التاريخ .. وهذه الأسرة كانت تستقبل فجرا جديدا لحياة مثمرة بميـلاد عميدها فى هذا القرن الأستاذ مصطفى صادق الرافعى .. حيث كتب لها الخلود وأصبح علمها الذى يخفق عاليا فى آفاق المعرفة والأدب .

ولد فى شهر يناير عام ١٨٨٠ م ، وينحدر نسبه من الفاروق الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وأجداده كلهم من ذوى العلم والفقه فى الدين ، وكان أكثرهم يشتغل بالقضاء ، ويعتبر الشـيخ عبد القادر الرافعى المتوفى فى عام ١٨١٤ م هو رأس الأسرة فى الوطن الرئيسى — طرابلس الشام ، عنـدما رحل أحد أفرادها — وهو الشيخ محمد الطاهر الرافعى الى مصر عام ١٨٢٧ م معينا من قبل الحكومة العثمانية قاضيا للحنفية فى مصر — ثم توالت هجرة بعض اخوانه ، وبنو عمومته يشتغلون قضاة ومعلمين لمذهب أبى حنيفة فى القطر المصرى .

ويروى الاستاذ سعيد العريان انه أوشكت وظائف القضاء والفتوى فى وقت ما أن تكون مقصـورة على آل الرافعى ، حيث اجتمع منهم أربعون قاضيا فى مختلف المحاكم المصرية ، وأن اللورد كرومر قد تنبه الى هذه الظاهرة فكتبها فى تقاريره الى وزارة الخارجية البريطانية .

ذلك تاريخ موجز لأسرة آل الرافعى التى ينتسب اليها أديبنا الأستاذ مصطفى صادق ، ووالده الشيخ عبد الرازق بن الشيخ سعيد الرافعى من بين أحد عشر أخا يعملون فى القضاء ، وانتهى به أمر رياسته للمحاكم الشرعية الى محكمة طنطا حيث أقام الى أن وافاه الأجل ودفن فيها .. أما زوجته — والدة الرافعى — فهى ابنة التاجر الحلبى المعروف الشيخ

الطوخى الذى أقام فى مصر وكانت تجارته بينها وبين سوريا ، وقد آثر السكنى فى « بهتيم » احدى قرى مديرية القليوبية حيث استوطن وأقام ضيعة كبيرة ..

وفى بهتيم كان مسقط رأس الطفل الذى كتب له أن يكون فيما بعد علما من أعلام الفكر والعلم والأدب ، وقد جاءت أمه من طنطا لتلده فى البيت الذى خرجت منه عروسا : بيت أبيها ، ثم تعــود به فى فرحة ، لتقدم للغد انسانا عظيما .

كان الرافعى قبل عام ١٨٩٢ يأخذ عن والده تعليمــه فى الاملاء والانشاء وحفظ القرآن ، ثم أدخل المدرسة الابتدائية فى « دمنهور » ولم يمكث بها عاما حتى انتقل الى المدرسة الأميرية بالمنصورة ، حيث عين والده قاضيا فى محكمتها .

وفى عام ١٨٩٧ نال الشهادة الابتدائية بتفوق ، وعنده حصيلة لا بأس بها من اللغة الفرنسية ، ومنذ ذلك الوقت اتجه اتجاها آخر أكثر ملاءمة له وأرضى لميوله المتفتحة للاطلاع والمعرفة .. وكان قد أصيب بمرض التيفوئيد آنذاك واشتد عليه حتى لقد أثر على أعصابه ، فنال من صوته وأذنيه ، ثم تحسنت الأوتار الصوتيــة ولــكن وقر الأذنين ظل يتضاعف حتى ذهب بسمعيه ، وهو على أعتاب العقد الثالث من عمره الخصيب .

كان الرافعى وهو فتى قد انصرف بكل فكره ومشاعره الى التزود من مدرسته الخاصة التى كونها لنفسه مع أساتذته الأعلام فى مكتبة أبيه العامرة ، ثم فى مكتبته هو فيما بعد . ومن الطبيعى أن تكون عند والده العالم الجليل مكتبة ضخمة تحوى كثيرا من العلوم الفقهية والدينيــة والأدبية ، ويجد فيها ابنه الشاب الواعى طلبته ، فيصيب الكثير من منهل العلم الصافى ومن معين المعرفة ، ويقبل على دراسته المتصلة بطبعه الذى نشأ عليه من التهذيب النفسى ، وتقديسه لأمور الاسلام .

وهكذا تتغذى روحه وتنمو أفكاره فى جو تربيته الدينية ، وهو ينهل من كأس الحقيقة النيرة زاده ، ويلتمس من أسرار اللغة فنه .. فاذا

به يصبح حجة فى الأدب والعلم ، غزير التعليم ، واسع الاطلاع ، ينتج بغزارة ، ويكتب لهدف ، ويعمل للرسالة المقدسة التى حملها واضطلع بأعبائها ، ولئن كان يضايقه صممه الا أنه قد أفاد منه الكثير بأن حجب عنه صخب الحياة وضجيج الناس حوله ، وهو بينهم يعالج من شئونهم ، انه بذلك قد نعم بحريته الفكرية المطلقة وتأملاته الشاعرية وتخيلاته وأحلامه .. وهو بعقيدته الراسخة لم يخش فى الحق لومة لائم ، طليق الروح والفكر والقلم .. واذا كان قد خسر شيئا من فقده سمعه فلقد ربح الكثير ، ولكن ليس لذاته هو وانما للفن والأدب والمجتمع ، وهو يقول فى هذا :

« اذا كان الناس يعجزهم أن يسمعونى فليسمعوا منى » .

ولا ننسى هنا أن نذكر شيئا عن المدينة التى تقيم فيها الأسرة ، والتى أمضى بها الرافعى كل حياته .. انها مدينة طنطا المحافظة التى لها صبغة دينية ، وفيها « الجامع الأحمدى » الذى يماثلَ الأزهر بالقاهرة ، وكانت ضواحى طنطا مزارع وحدائق تعانقها من كل جانب ، وفيها يمتزج جمال المدن بروعة الريف ، ومساكنها ، وشوارعها لها شبه كبير بمصر القديمة .. وهى بشكل عام بادية النظافة لطيفة المظهر ، هادئة ، بعيدة عن الضجيج والزحام اللذين يعمان المدن الكبيرة عادة كالقاهرة .

فى هذا الجو الهادىء كانت نشأة الرافعى ومراحه ومغداه حتى تكون وأنتج روائعه ، واستقبل حياته وعاصرها وودعها فى هذا المكان الذى أحبه وخلف فيه الذكرى للتاريخ ، حيث ولد وعاش ومات .

عمله وحياته الخاصة

أمضى الرافعى طيلة عمره فى مدينة طنطا كما أسلفنا عدا بعض الوقت -- قبل أن يستقر به الحال -- عندما بدأ يشتغل ليستعين على معيشته وتكوين أحواله .

كان أول ما اشتغل به -- وهو فى التاسعة عشرة من عمره -- فى وظيفة بسيطة بالمحكمة الشرعية فى « طلخا » ، وكان يتقاضى منها شهريا أربعة جنيهات مصرية .. وفى طلخا كان يقيم فترة من الزمن الشاعر العراقى عبد المحسن الكاظمى الذى هاجر الى مصر عام ١٨٩٩ م وهو فى نحو الثلاثين من عمره ، وهنا تعرف به الرافعى وكان من أصدقائه الخلص . وبعد بضع سنوات انتقل الرافعى الى محكمة «ايتاى البارود» الشرعية ، وفى هذه المدينة بدأت عاطفة الرافعى تبحث عن مرائى الجمال وتشتاق الى المتعة البريئة ، وقد عرف على « جسر كفر الزيات » فتاة حسناء ، وهو كل يوم يقطع هذا الجسر ذاهبا الى مقر وظيفته وعائدا منه الى داره فى طنطا ، وذلك عام ١٩٠١ م ، عرف قلبه الحب فى هذه الفاتنة « عصفورة » لأول مرة فكأنما استيقظ من اغفاءة وأحس بنعماء الحياة وحيويتها تتدفق أمامه وفى نفسه ، وهو يرى الحسن الفاتن يتضوأ ، فيستكمل احساسه دوافعه ، وتفيض مشاعره بوحى تلك الفاتنة المصرية ، ويسلس له قياد الشعر ، وتشيع غزلياته الجديدة فى الصحف ، حتى ليطمع أن يسمى « شاعر الحسن » ..

ولم يكن حب الرافعى موجها الا للحب العذرى وللقداسة .. بل للالهام والانتاج ، كذلك الحب العذرى الذى قرأ الكثير عنه فى دواوين أسلافه العرب الزاخرة بالغزل العفيف .

ويقدر للرافعي أن ينتقل الى محكمة طنطا الشرعية ، ثم يطلب النقل الى محكمتها الأهلية — لزيادة فى الأجر — وبها يقر مقامه ، ومن عمله فيها تقدير رسوم القضايا ، وقد وجد معها فسحة من الوقت ليطالع أو يكتب .. وهكذا بقى بوظيفته هذه فى الدرجة السادسة الى اليوم الذى لقى فيه نهايته ، وكان يتقاضى بضعة وعشرين جنيها شهريا .

ولم يصرفه عمله يوما عن فنه ورسالته ، وما كان يرى فى الوظيفة الا وسيلة لتهيئة العيش ، كما أنه لم يكن يتقيد بمواعيدها المفروضة على الموظفين ، ويدل على هذا حينما قدم ضده رئيس المحكمة الجديد — آنذاك — شكوى الى وزارة العدل مطالبا بفصله بحجة أنه أصم وغير موفق فى عمله ، وكان الدافع لهذه الشكوى أن الرافعي لم يكن موجودا على مكتبه ولم يشترك فى السلام والترحيب بالرئيس الجديد — كعادته التى عرفت عنه بأن يسعى للتحية منفردا — أو يأتى اليه القادم الجديد بنفسه ، وانتدبت الوزارة يومها الشاعر حفنى ناصف ليحقق فى هذه الشكوى ، ولم يجبه الرافعي بأكثر من أن قال :

« قل لهم فى الوزارة ان كانت وظيفتى هنا للعمل فليؤاخذونى بالتقصير والخطأ فيما يسند الى من عمل ، وان كانت الوظيفة : تعال فى الساعة الثامنة واجلس على الكرسى كأنك مشدود اليه بحبل حتى يحين موعد الانصراف فلا على ان تمردت على هذا التعبد .. قل لهم فى الوزارة انكم لا تملكون من الرافعي الا هاتين الاصبعين ساعات من النهار » .

وتقدم حفنى ناصف منصفا الرافعي الأديب ليكتب الى وزارة العدل :

« ان الرافعي ليس من طبقة الموظفين الذين تعنيهم الوزارة بهذه القيود .. ان للرافعي حقا على الأمة أن يعيش فى أمن ودعة وحرية ، ان فيه قناعة ورضى ، وما كان هذا مكانه ولا موضعه ، لو لم يسكن اليه ، دعوه يعش كما يشتهى أن يعيش واتركوه يعمل ويفتن ويبدع لهذه الأمة فى آدابها ما يشاء أن يبدع والا فاكفلوا له العيش الرضى فى غير هذا المكان » .

وكان هذا كافيا لأن يطمئن الرافعى بحيث أصبح لا سلطة لأحد عليه ، وهو النزيه الحريص الذى يؤدى كل أعماله باخلاص وأمانة ، ولا يمكن أن يصرفه شيء عن عمله الأدبى والانتاج المتواصل ، حتى انه ليسهر وينصب ويرهق أشد الارهاق فى سبيل ذلك ، ثم هو لا يترك وقتا يمر دون أن يستغله فى المطالعة ، والكتاب لا يفارقه ان كان فى القطار الى عمله أو فى المقهى أو فى المتنزهات ، ان أمكنته ظروفه الخروج اليها بعض الوقت ، حتى انه حفظ عن ظهر قلب « نهج البلاغة » للامام على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، أيام كان يقطع الطريق فى القطار كل يوم بين طنطا وطلخا ، وعندما يأتيه زائر من صحبه يغريه بالقراءة معه ، ومناقشة موضوع فى الأدب أو العلم ، حتى لا يضيع الوقت الثمين فى لغو الكلام ، وكان يتمنى لو أنه استكمل تعليم اللغة الفرنسية التى درس مبادئها وقرأ منها بعض الكتب الأدبية ، غير أن وقته لم يكن ليتسع الى جانب ذلك البحر الزاخر من الكتب العلمية والأدبية بلغة القرآن ، واقباله عليها وعلى روائع هذه الآداب العربية قديمها وحديثها ومعالجته لفنونها المختلفة .

فكانت مطالعاته وقراءاته الواعية متصلة بأيامه فى دراسة دائمة دون ملل ، وفى انتاج متكامل هادف مستمر دون توقف أو جنوح الى الراحة أو طلب للترقية ، حتى ان قراءاته كانت لا تقل عن ثمانى ساعات يوميا فى أغلب الأحيان ، فالرافعى متعمق فى دراسة علوم الدين وتاريخ العرب الأدبى وعظائهم ، وفى أسرار اللغة البلاغية .. وكتاباته من أقوى ما عرف فى الآداب بيانا وتعبيرا وتفننا وابداعا .

بدأ الرافعى حياته الأدبية ينشد الشعر ويجيد فيه غزلا ووصفا وتفلسفا .. وما عتم أن أبحر فى مجالات أرحب فكان « حديث القمر » و « وحى القلم » وغيرهما من روائع الأدب العربى .

وفى عام ١٩٠٤م تزوج من شقيقة الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة «البيان» الذى كان يعرفه شاعرا مجيدا وينشر له قصائده، وقد توفى بعد الرافعى بنحو ثمانى سنوات ، ويروى الاستاذ العريان ان الأستاذ الرافعى حدثه بقصة زواجه فقال :

« كنت فى الرابعة والعشرين ، وكنت أعرف عبد الرحمن البرقوقى نوعا من المعرفة التى تربط بين شابين ترافقا فى الطبع ، واتفقا فى الغاية . وكان عبد الرحمن طالبا أزهريا ولوعا بالأدب ، له حظوة ومكان عند الأستاذ الامام « محمد عبده » اذ كان من تلاميذه الأدنين ، وكنا نلتقى أحيانا فسرنى منه ما سره منى ، وكان يعيش عيشة مترفة ليس منها حياة الأزهريين ، اذ كان له من غنى أبيه ومن جاه أسرته عز وكرامة .

« فما تعارفنا حتى تصافينا ، ثم اتصل بيننا الود ، فكنت له — وكان لى — أصفى ما يكون الصديق للصديق . لم أكن أعرف له أخا أو أختا ، ولم يجر فى بالى قط أن الصلة بيننا ستتجاوز ما بيننا ، حتى كان يوم جلست فيه أتحدث الى نفسى ، فكأننى سمعت صوتا من الغيب يهتف بى أن صديقى عبد الرحمن هو صهرى وأخو زوجى .

« واتتبهت وأنا أسأل نفسى : أله أخت ؟ ياليت .. لو كان ، اننى اذن من السعداء .. وكانت نفسى فى الزواج ، فما هى الا أن تحرك فى نفسى هذا الخاطر حتى سعيت الى صديقى عبد الرحمن وقلت له وقال لى ، وجرنا الكلام الى حديث الزواج ، فقلت لصاحبى : من لى يا أخى بالزوجة التى أريد ؟ ووصفت له الفتاة التى تعيش فى أحلامى . فلما فرغت من حديثى قال صاحبى : أنا بك بما تريد . قلت : أتعرف ؟ قال : هى هدية أقدمها اليك . قلت : من ؟ قال : أختى . وغشيتنى غشية من الفرح فما تلبثت حتى مددت اليه يدى فقرأنا الفاتحة ، وما وقع فى نفسى وقتئذ أننى أمد يدى لأخطب عروسى بنفسى ، ولكنى أمدها لأتعرف الى العروس التى خطبتها لى الملائكة وأثبتت نبأ الخطبة فى لوح الغيب »

عاش الرافعى سعيدا فى حياته الزوجية ، تبادله شريكته الحب والحنان ، وتقدره وتحترمه كرجل عظيم ، وتهيىء له وسائل الراحة لعمله الفكرى ولشئونه العامة ، حتى انه حين أحب حبه الآسر ، وسيطر هذا الحب على قلبه وعواطفه ، تحدث الى نفسه يقول : « ما أنا وهذا الحدث الذى يعترض طريقى ويغلبنى على ارادتى ؟ ان فى بيتى امرأة

أحبها وتحبنى ، وان لها على حقا ليس منه أن يكون منى لغيرها نظرة أو ابتسامة الا أن تأذن لى . ماذا يكون من أمرى وأمرها غدا أمام الله حين يطلب كل ذى حق حقه ؟ » .

ولم يطب قلبا الا بعد أن ألقى بخبر حبه الى زوجه المثالية ، وصار لايكتب لمحبوبته رسالة الا وتتطلع عليها زوجه التى تعرف سلامة نيته ، كما تفهم موقف تلك المحبوبة الأديبة من رواد مجلسها الأدبى الرفيع .

ويصف الأستاذ العريان سمات الرافعى ، يقول : « وجه ممسوح مستطيل ، وجبهة عريضة تبدأ فوق الحاجبين غائرة نوعا ما ثم تبرز مقوسة قليلا اذا اقتربت من فروة الرأس ، وأنف طويل مستدق من أعلاه منتفخ من أسفله ، وكأنما صنعت له شفتاه ابتسامته الدائمة ، وتحمل شفته شاربا كثيفا أشمط تحيفته الأيام من أطرافه فتصاغر طرفاه بعد استعلاء وكبر ، وقامة رياضية متناسبة بريئة من الفضول لا يشينها طول ولا قصر ولا سمن ولا نحافة » .

كان الرافعى قد اعتاد أخذ اجازته فى أشهر الصيف حيث يقضيها غالبا مع أسرته فى مصيف « سيدى بشر » ويتخذ لهم ناحية منعزلة من شاطىء البحر للاستحمام بعيدا عن أنظار الناس ، وهو مع حبه للسباحة يمارس أيضا بعض التمرينات الرياضية — بمعداتها المعروفة — احتفاظا بحيوية جسمه وقوى أعصابه ، وقد كتب عدة مقالات فى الرياضة البدنية نشرت فى مجلة « المضمار » المصرية ، وكان معجبا بالرياضى الفرنسى « صاندو » الذى أخذ بتمريناته واحتفظ بصورته على مكتبه ، مع صورة للشيخ محمد عبده ، وصورة ثالثة للآنسة كريمان خالص ملكة الجمال التركية حينئذ ، وقد زارت مصر فى أوائل عام ١٩٣٣ ورآها الرافعى فى حفلة جريدة « السياسة » التكريمية لملكة الجمال وقال عنها : « انى رغما عن نقمتى على سفور المرأة المسلمة راض عن سفور هذه بخصوصها لأنها أشبه بتسبيحة الهية فى شكل انسانى » .

وكتب عنها رسالة قال انه سيضمها الى « أوراق الورد » فى طبعة أخرى .

ويروى الاستاذ سعيد العريان ان اجتماع الصور الثلاث تلك قد استرعت ملاحظته فسأل فيها الرافعي ، فأجابه مشيرا الى صورتى الامام وصـــاندو : هاتان قوتان تعمــلان فى نفسى : قوة فى روحى وقوة فى جسدى ، ثم أشار الى صورة ملكة الجمال قائلا : وهذه ما أجملها .. انظر .. ألا تقرأ شعرا مسطورا على هذا الجبين ؟

والرافعى لم يكن يتناول من المنبهات ســوى الشـــاى والقهوة ، ولكنه فى أواخر أيامه زاد عليهما السيجارة أحيانا أو « الشيشة » — ويسميها الكركرة — ومع ذلك فهو دائم العناية بصحته التى لا يملك معها دفع بعض الحالات المرضية التى كانت تنتاب جسمه ، فتتــكرر شكواه فى بعض رسائله الكثيرة الى الأستاذ محمود أبو رية ، ويقول من رسالة اليه فى ٢٣ مارس عام ١٩١٦ م :

« أنا أريد أن أعمل كثيرا ولكنى أضجر وأمرض وأجد من العوائق أكثر مما أجد من الادارة ، وفى الثلاثة الأشهر الأخيرة مرضت نحــو ثلثيها » .

ومن رسالة فى أول مارس عام ١٩٢٢م : « ان كل ما تراه فى من اضــطراب فى هذه السنين الأخيرة منشــؤه هذا المرض العصبى الذى أضعف رأسى » .

والرافعى لم يكن يجهد نفسه فى غير عمله الأدبى الى جانب عمله الوظيفى الذى لابد منه ، ويقول من رسالة فى ٢٥ فبراير عام ١٩٢٦ : « لقد قلت لك انى شغلت نفسى بعد هذا المرض ، فلا كتابة ولا مطالعة ولا شيء الا شغلَ المحكمة ، ولعل هذا الشغل هو الذى اطال مدة المرض والحالة الآن والحمد لله أخذت فى التحسن بعد أن اهتديت الى المعالجة بالكهرباء ، ولكن لابد من الراحة الى نهاية الشفاء لأنى شفيت مرارا وكلما أتعبت نفسى فى كتابة انتكست » .

ومن رسالة فى ١٣ ديسمبر عام ١٩٣١ : « وصحتى الآن متقــدمة — ولله الحمد — وهذا المرض لا يزول الا ببطء والمهم انقضاء الدور

الحاد فيه على أن التعب العقلى له تأثير سيىء وهذا ما يقع لى كلما أتعبت نفسى فى عمل » .

هذه هى طبيعة الحياة ، ولم يخل جسم من ألم يأتيه من أى جانب. وشخص كالرافعى له من مسئولية الأسرة وعياله ، وواجب الوظيفة ، وفرض رسالته عليه : كل ذلك أعباء موزعة على جسمه وفكره وأعصابه وكيانه .. ولذلك يقول : « أهما مرضان فى القوة أم سجنان للقوة ؟ أم الالوهية تحقق بهذا الأسلوب الجبار قدرتها فى ضبط هذا الاله العقلى المسمى الانسان فشدت وثاقا من شعوره بآلامه ، وجعلت أكثر معانيه الانسانية هى أكثر سلاسله » .. الى أن يقول بحكمة : « ترفعنا الهموم والآلام لأن عواطف الحزن والشقاء لا تكون الا من سمو ، وهى لابد أن تكون لأنها وحدها الحارسة فينا لانسانيتنا اذ تخلق مع حياة الجسم المادية حياة معنوية للقلب » .

وظل الرافعى يسكن مع والده فى منزل واحد حتى توفاه الله ، وكان يأمل فى عام ١٩٣٤م أن يبنى له سكنا مما ادخره من ماهيته ، بعد أن اشترى قطعة صغيرة من الأرض بأنقاضها ، بحيث تتسع ليقوم عليها منزل وحديقة حوله ، وفقا للرسم الذى عمله له صديقه المهندس الشاعر على محمود طه . ولم يتحقق أمله هذا اذ أن صهره اقترض منه كل ما كان قد اجتمع لديه من مال ، ثم حدثت الضائقة الاقتصادية فى مصر فى ذلك الحين وتبددت كل ثروة الصهر ، وتبدد معها كثير من الأحلام والأمانى .

غير أن الرافعى كان ينفق على طبع كتبه كل ما يدخره ، وكم كانت فرحته عظيمة عندما أمر القصر الملكى بطبع كتابه « اعجاز القرآن » ، . وكانت هذه الطبعة الثانية فى « ٦٠٠٠ » نسخة مما جعل الكتاب يتداوله الناس وتزيد معارفه لمؤلفه .

ومن ذلك العام (١٩٢٧) جعل يرخص من ثمن كتبه لتنال نصيبا أكبر فى التوزيع ويقرأها الكثيرون — « لأن تلك الفائدة أثمن من المادة » — كما يقول .

ولئن كانت طبيعة الرافعى هى المرح والتفـاؤل ، الا أن ظروف الحياة التى تحتكر جهود الانسان — وكأنه يعمل فى دوامة — لا تقف عند حد ، جعلته ينظر نظرة متشائمة الى العالم الذى يرى فيه كل يوم متناقضات عجيبة .. فكان يتمثل بقول الشاعر العربى الأول أبى تمام :

« على أنها الأيام قد صرن كلها   عجائب حتى ليس فيها عجائب »

لقد كان حقيقا بالرافعى أن يتفرغ بكل وقتـه لرسالتـه وأعماله الأدبية ، وأن يعين له ما يكفيه لمعيشته وأسرته ، حتى يحيا فى أمان من الارهاق الذى عاناه والآلام التى كانت تحز فى نفسـه ، لأن آماله لم تتحقق كما يرجو ويبتغى لفنه وأدبه ومكانته . فلم ينجز كثيرا مما كان يعتزمه ويهيئه من بحوث ومؤلفات ، غير أن ما قدمه وأخرجه من أعمال باق الى الأبد .

مراحل أدبه وانطلاقه

نظم الرافعى الشعر وهو فى التاسعة عشرة من عمره .. وبه بدأ حياته الأدبية ، ونشر بعض شعره وهو دون العشرين ، فى معظم الصحف والمجلات المصرية .. ثم أخذ هذا الشعر يحتل مكانته بين شعر من عاصروه أمثال شوقى وحافظ ابراهيم والكاظمى والبارودى وغيرهم . وعرفه كل أدباء مصر وسوريا ولبنان ، وكانت بينه وبين بعضهم صداقات قوية ومراسلات وصلات ودية ، نذكر منهم — مع من ذكرنا آنفا — ابراهيم اليازجى واسماعيل صبرى ومحمد حفنى ناصف وسليم سركيس وجورج ابراهيم حنا ومحمود أبو رية .. وغيرهم .

وكان ميدان قلمه أيضا مجلات : المقتطف والثريا والضياء والبيان والزهراء والرسالة ، وجرائد : البلاغ والسياسة والجريدة والصاعقة .. وغيرها .

وقد تأثر الرافعى فى دراساته بما كان يكتبه ابراهيم اليازجى بالأسلوب الأدبى ، وبما اتجه اليه فى قراءة كتب الجاحظ والمبرد ومؤلف الأغانى ، ثم كتب علماء اللغة والدين والفلسفة الاسلامية .. وما كان أجله من زاد .

وكان ايمان الأديب الناشىء برسالته وانتاجه كافيا لأن يحفزه الى المضى فى الطريق .. وهو يرى فى الميدان من يزاحمه من الشعراء ، كما يرى أنه هو أحق من غيره بلقب « شاعر الحسن » ، وعندما أخرج « حافظ ابراهيم » ديوانه عام ١٩٠٢م بمقدمة جامعة ظلت طويلا مشارا للنقاش فى أحاديث الأدباء ، تشجع الرافعى وأقبل يكتب للجزء الأول من ديوانه مقدمة قوية ضافية تعتبر درسا وافيا للفنون الشعرية وأغراضها

وتاريخها بوجه عام ، ونشرتهـا — آنذاك — جريدة « المؤيد » بعد صدور الديوان ، وهى تقرر الواقع وتثنى على الجهد الأدبى الذى أملاه الشاب وهو يخطو بثبات الى المستقبل الزاهر المرتقب .. وراح الكثير من الأدباء والصحفيين يكتبون عن هذا الديوان وعن مقدمتـه تقريظا ونقدا ، ولم يصمت عنه سوى الشاعر ابراهيم اليازجى — كما يروى صديق الرافعى — الاستاذ جورج ابراهيم حنا ، الذى يقول انه ذهب لليازجى يسأله عن السبب فى صمته فيجيبه متسائلا : أنت على ثقة أن هذه المقدمة من انشاء الرافعى ؟ فيرد عليه : هو كتبها بعينى فما أشك فى ذلك . قال اليازجى : وأنا ما أبطأت فى الكتابة عن الديوان الا من الشك فى قدرة هذا الشيخ على انشاء مثل هذه المقـدمة ، فأنا منذ أسبوعين أبحث فى مكانها من كتب العربية » ويرد عليه جورج ابراهيم بقوله : يا سيدى انه ليس بشيخ ، انه فتى لم يبلغ الثالثة والعشرين » .

وفى مجلة «الضياء» بالعدد الصادر فى يونيو ١٩٠٣م نشر اليازجى تقريظه لديوان الرافعى ، وقال فيه : « وقد صدره الناظم بمقدمة طويلة فى تعريف الشعر ذهب فيها مذهبا عزيزا فى البلاغة ، وتبسط ما شـاء فى وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيته فى كلام تضمن من فنون المجاز وضروب الخيال ما اذا تدبرته وجدته هو الشعر بعينه » .

وكانت يومها كلمة يقولها « اليازجى » هى الحجة لما له من مكانة وشهرة أدبية .

وعرفت الرافعى الأوساط الأدبيـة بعد اصداره الجزءين الأخيرين من ديوانه ، ونال شعره الاستحسان والاعجاب ، وعلا اسمه مع الشعراء المجيدين فى أيامه ، وأرسل اليه الشيخ محمد عبده برسالة تقدير يقول له فيها: أسأل الله أن يجعل من لسانك سيفا يمحق به الباطل، وأن يقيمك مقام حسان فى الأوائل » .

ان الرافعى سعى جادا ليكون سيد شعراء عصره ولينافس غيره حتى يحتل المكانة التى يطمع فيها .. وكتب مقالة نقدية جريئة للدعاية عن نفسه وقدرته فى النقد وباعه الطويل فى الأدب ، ونشرتها له مجلة «الثريا»

فى يناير عام ١٩٠٥م غفلا من التوقيع عليها باسمه . لأنه كان قد تناول فيها بعض الشعراء بالنقد الساخر وتطاول على انتاجهم بما لم يعهدُوه فى ناقد قبله .. وفى هذه المقالة قسم الشعراء ثلاث طبقات ، أحل نفسه منها فى الطبقة الأولى على النحو التالى :

الطبقة الأولى : الكاظمى والبارودى وحافظ والرافعى .

والطبقة الثانية : صبرى وشوقى ومطران والبكرى وداود عمون ونقولا رزق الله وأمين الحداد ومحمود واصف وشكيب أرسلان ومحمد هلال ابراهيم وحفنى ناصف .

والطبقة الثالثة : الكاشف والمنفلوطى ومحرم وامام العبد والعزبى ونسيم ، ومن العراق السيد ابراهيم ومحمد النجفى .

وتعتبر هذه المقالة بداية الرافعى فيما نشط له قلمه فى النقد وكشف الحقائق وغربلة الآراء والأفكار من كلّ الاتجاهات أو التيارات ، وفى مطلع هذه المقالة يقول الرافعى :

« قرأت فى بعض أعداد الثريا كلمة عن « الأدب قديما وحديثا » فقلت : كلمة مألوفة . ولم ألبث أن رأيت جملة أخرى لأديب غيور على الشعراء ، كان رأس الشعر بين أولها وآخرها كأنما شدخ بين حجرين ، فقلت : انى أنظم الشعر فأسر وأقرأ عنه فأسر ، فمالى لا أنفشها ، والقوم قد أصبحوا يتنافسون فى ألقاب الأمراء وقد استزيا فى الزور ، فلا أكثر أولئك شاعر ولا أكثر هؤلاء أمير . ثم رأيت بعد أن عزم الله لى كتابة هذا المقال أن أتركه بغير توقيع وان كنت أعلم أن أكثر من يقرأونه كذلك سيخرجون من خاتمته كما لو كانوا أميين لم يقرأوا فاتحته ، فان الحكمة كلها والمعرفة بجميع طبقاتها أصبحت فى أحرف الاسماء . فان قيل : كتاب لفلان .. قلنا : أين يباع ، وان كان من سقط المتاع ، على أن اسمى قد لا يكون فى غير بطاقتى وكتبى الى أصحابى القليلين وفى سجل بعض الجرائد والمجلات ، فليظننى القارىء ما ضرب على رأسه الظن .. وسأذكر فى هذه الأسطر كل من عرفته أو اتصل بى اسمه من الشعراء ،

وأقطع عليه رأيى ، فاما وسعه فكمل به ، واما أظهره كما هو فى نفسه لا كما هو عند نفسه ، ولذلك قد ضممتهم الى ثلاث طبقات ، وجاريت فى تسمية بعضهم بالشعراء عادتنا المألوفة » .

الى أن يقول الرافعى عن نفسه : « لو كان هذا الشاعر كما أسمع عنه، فانى أكون قد ظلمته اذا لم أقدمه عن هذا الموضع (الرابع من الطبقة الأولى) فقد أخبرت أنه لم يتم الرابعة والعشرين من عمره ، ولذلك فانى لا أكتب عنه الا ما أعرف من شعره ، سواء أكان فتى أم كهلا ، وهو قد طبع من ديوانه الجزء الأول من سنة مضت ، وذكر فى مقدمة شرحه أنه نظمه فى عامين وأنه لم يقل الشعر الا منذ ثلاث سنوات من طبع ذلك الجزء ، ولم ألبث أن رأيت منذ أشهر فى بعض أعداد مجلة « الجامعة » تقريظا مسهبا للجزء الثانى من ديوان هذا الشاعر ، فأكبرت ذلك ، ولاشك أنه ينظم اليوم الجزء الثالث قياسا على ما تقدم .. ومما امتاز به هذا الشاعر ولعه الشديد بالغزل وبلوغه فيه أسمى ما يبلغه النظم ، وله مزية أخرى وهى غوصه على المعانى فى الأغراض التى لم تطرق، وكثيرون يعدونه بذلك شاعر مصر وديوانه معروف وشعره مشهور ... الخ » .

وبعد أن تحدث عمن ذكرهم من الشعراء وأصاب بعضهم بنقده اللاذع اختتم مقالته قائلا :

« وسنرى ما يكون من امتعاض الشعراء بعد هذا المقال ، ولكنى أطلب اليهم أن يخففوا عن أنفسهم فلا أنا من معية الأمير ولا من حاشية السفير ، وليس ما كتبت الا رأيى ، فليبق كل فى رأيه وعند نفسه أشعر الشعراء » .

ولم يكن بد من أن تبرر مجلة « الثريا » موقفها فذيلت المقالة بحقيقة ما كان وقالت :

« ألقى الينا مكتب بريد الزيتون يوما ملفا واردا من مصر وداخله كتاب موجز ومعه المقالة المتقدمة للنشر ، أما الكتاب فهذه صورته بعد الديباجة :

« .. دونك مقالة بكرا لم ينسج على منوالها بعد فى العربية ، حرية بأن تصدر بها مجلتك الغراء ، ولا يروعنك شـــدة لهجتها فكلها حقائق ثابتة وان آلمت البعض فان الحق أكبر من الجميع ، وانى لبالمرصاد لكل من ينبرى للرد عليها ، وأنا كفء للجميع ، وما أخال أحدا يستطيع أن ينقض حرفا مما كتبته ، وان هم لزموا الصمت فحسبك من ســكوتهم اذ ذاك اقرارا بأنى أنزلت كل شاعر فى المنزلة التى يستحقها . ولا يعنيك معرفة اسمى فأنا ابن جلا وطلاع الثنايا ، فانظر الى ما قيـــل وليس لمن قال ، وبعد فان أعجبتك مقالتى فانشرها والا فاضرب بها عرض الحائط . وانى أقترح عليك أن تنشر جميع ما يردك من الردود فى المعنى ، سواء جاهر أصحابها بأسمائهم أو تستروا ، فان الموضوع طلى شــهى وفى اطلاقك الحرية للكتاب ما ينشط بهم لحرية الجولان فى هذا المضمار » .

وزادت مجلة الثريا تعقيبا على ذلك بقولها : « ... وقد تصفحنا المقالة فراعنا شدة لهجة الكاتب ، وبتنا نقـــدم رجلا ونؤخر أخرى فى نشرها ، الى أن تغلب علينا الميل لنشرها ، ان لم يكن لشىء فلكثرة ما حوته من رائق الأشعار لفحول الشعراء ، وهم نخبة شعراء مصر فى هذا العصر ، فأقدمنا على نشرها كما وردتنـــا بالحرف الواحد غير متحملين تبعتها ، وللكتاب الأدباء الحرية فى الرد عليها ، وأبواب الثريا ترحب بكل ما يردها من هذا القبيل ، سواء من المشتركين أو غيرهم ...

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم » .

بعد ذلك راح الرافعى يتأمل الأوضاع الأدبية والاجتماعية حوله وينظر بعمق وتفكير الى ما يمكن أن يقدمه غير الشـــعر الذى يقيـــد انطلاقاته ، ليبحث فى التاريخ ، وليخدم قومه ولغته وأدبأمته الحالى.. تفكر طويلا وهو دائب العمل بفطرته واندفاعات نفسه الى التجديد فى التأليف .. بالتفنن والانشـــاء ليغـــذى أولا ملكات الطلاب ويرفع من مداركهم بروائع البلاغة ممزوجة بالخيال وبفن التعابير فى قوالب مشرقة جميلة .. وكتب فى هذا ثلاث مقالات بديعة هى : « وصـــف البحر ، رسالة فكاهية ، الحسن المصنوع » ، وكان يود الزيادة عليها واصدارها

فى كتاب دعاه « ملكة الانشاء » غير أن ظروفه العصبية لم تمكنه من اتمامه . وقد نشر المقالة الأولى فى الجزء الثانى من ديوانه ، ونشر الثانية فى الجزء الثالث ، ونشر الثالثة فى ديوانه « النظرات » .

وانطلق الرافعى بأسلوبه القوى وزاده الطيب ، يكتب بانشاء بليغ وقوة بيان وأفكار سامية ، لفتت اليه أنظار الأدباء والقراء ، وقد اتجه فى الأدب هذا الاتجاه الابداعى الجديد ليضيف اليه أسلوبا حديثا شائقا ، وهو يعالج شئون اللغة والمجتمع .. والتأريخ الأدبى بفنونه .. والقضايا الدينية والحياتية ، حتى ان الزعيم مصطفى كامل قال عنه : « وسيأتى يوم اذا ذكر فيه الرافعى قال الناس : « هو الحكمة العالية مصوغة فى أجمل قالب من البيان » .

والرافعى شاعر بطبعه ولو فرغ للشعر وحده لأمسك بزمام الشعر فى عصره .. ولكنه باتجاهه النثرى غلبت عليه صلة الكاتب الفذ والأديب الحجة ، وما كان ليترك قول الشعر فى الحالات التى يدعوه اليها ، وقد أقبل عليه بين عامى ١٩٢٣ — ١٩٢٦م حينما أحب حبه الخالد .

وهو يقول فى الرسالة التى أرسلها الى الأستاذ أبى رية فى ١٧ من ديسمبر عام ١٩٢٨م — عن سبب تحوله الى النثر — : « ومن نكبة الشعر العربى أنه لا يتسع لبسط المعانى ، فاذا بسطت المعانى فيه وشرحت سقطت مرتبته من الشعر وأصبح نظما كنظم المتون فى الأكثر ، وهذا هو ما صرفنى من الأول الى الكتابة ووضع حديث القمر والمساكين وغيرهما ، فان هذه الكتب هى شعر ولكنه فى غير الظروف الموزونة » .

وهو قد وضع قبل تلك موسوعة «تأريخ آداب العرب» ثم اعجاز القرآن ، وفيما بعد انتحى بقلمه ليواصل ما كان قد بدأه من النقد والاصلاح مما سنتبسط فى الحديث عنه فى الفصل القادم .

وفى عام ١٩٣٤م كان الرافعى يكتب فى مجلة « الرسالة » بأجر مدة ليست بالقصيرة ، ثم عرض عليه الأستاذ توفيق دياب صاحب جريدة « الجهاد » ليكتب فى جريدته مقابل زيادة فى الأجر غير أنه لم يتفق معه لسبب فى نفسه .

ومن طريف ما يروى عن الرافعى حبه للنكتة ومتابعته النظر للمرأى الجميل وهيكل الحسن فى حواء ، ليتخيل ويخلق الفكرة ، ثم يستلهم ويكتب ويبدع فيما ينتج ، حتى ان أدب التراسل الغزلى الذى خلفه ، يعتبر أدبا حديثا لم يطرق بشكله الذى جاء به الرافعى ، ولم يأت قبله فى فنه وابداعه ، وأظنه لن يكون له مثيل بالأسلوب الذى تتميز به كتابات الرافعى وفنونه الرائعة .. وسنعرض شيئا من هذا التراسل البديع عند حديثنا عن حب الرافعى وعند الكلام عن مؤلفاته فيما سيأتى من فصول.

ومن الطريف عن الرافعى أيضا : أنه كلما خطر له عنوان موضوع ما ، سجله فى مذكرته ، ليكتب عنه عندما يجد بواعثه ، وقد يبقى العنوان أياما بل شهورا حتى يجد هذه البواعث تحمله وتدفعه على الكتابة فيخرج به بحثا قيما .

وكان الرافعى يسير على سنن اختطه لنفسه وهيأته له الظروف . ووجد فيه سبيله وغايته ، وهو بذلك يقرر هذا النصح لكل أديب ، فى قوله شعرا :

« وأول رأيك أن تستفيد وآخر رأيك أن تجتهد »

وقال فى ختام رسالته للاستاذ محمود أبى رية فى ١٠من ابريل عام ١٩٣١م : « السبيل لدراسة الأدب العربى أن تقرأ كل كتاب وأن يكون لك طريقة خاصة فى الاستنتاج والفهم ، وأن يكون لك أسلوب قوى فى الكتاب فاقرأ كل ما تجده وما تستطيع أن تجده » .

ذلك هو الرافعى باتجاهه الجديد وبميدانه الذى كتب فيه أقوى وأرفع ما خط أديب وسطر عالم ، فألف كتبه القيمة كمصادر للثقافة .. من الأدب والفن والحب الى الدين والاصلاح مما سنرى فى عرضنا لنماذج من كتاباته فى الفصول التالية .

وخير ما نختم به فصلنا هذا ما قاله الرافعى فى احدى رسائله للاستاذ أبى رية يوم ٤ من ديسمبر سنة ١٩٣٣ : « ان للاعمال الأدبية جوا روحانيا خاصا اذا لم يجده العامل فخير له ألا يعمل شيئا » .

مؤلفاته :

ديوان الرافعى ، النظرات :

كان أول ما ظهر للرافعى من شعر — كما ذكرنا — ثلاثة أجزاء باسم « ديوان الرافعى » ضمت شعر صباه وهو فى العقد الثانى من عمره حتى منتصفه .. شعره المختلف الأغـراض والنواحى والذى يربى على المائتى قصيدة ومقطوعة .. وقد عمد الرافعى فى تقسيم أجزاء ديوانه الى أبواب ، يضم كل باب لونا من الشعر ، كما فعل بعض المحققين والشعراء الأوائل .

طبع الجزء الأول سنة ١٩٠٠م فى ١٥٤ صفحة ، وبه ستة أبواب فى ألوان القصائد — كما سنرى :

الباب الأول — فى التهذيب .. وأوله قصـيدة قالهـا الرافعى فى الخليفة عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — هذا مطلعها :

« لا زينـة المال تعليـه ولا المال ... ولا يشرفـه عم ولا خـال
وانمـا تسـامى للعلا رجـل ... ماضى العزيمة لا تثنيه أهوال »

الباب الثانى — فى المديح — وهى قصائد معـدودة يبـدأ فيها بالغزل — كالطريقة القديمة — ثم يتخلص منـه الى المدح .. ومنـه قصيدة فى الشاعر محمود سامى البارودى يقول فيها :

« يجرى الهوى طربا على آثارها ... مشى الجآذر للغـدير المترع »

الى أن يقول :

« أمسيت من آماله فى ليـلة ... ضل الصـباح بها طريق المطـلع
عرفوا به شعر الفحول وأهـله ... وسـجية المطبـوع والمتطبـع
لم أتل يوما آية مـن آيه ... الا حسبت الكون يتلوها معى »

الباب الثالث — فى الوصف — وهذه أبيات من قصيدة فى وصفه الخيام والقصور :

« أما حدثوك بأخبارها ... وقد نزل البين فى دارها
ليالى امرئ القيس بين الخيام ... يباهى السماء بأقمارها
قصور تدل بأيامها ... دلال الرياض بآذارها
اذا طلع الصباح حيث ذكاء ... شموسا توارت بأستارها
تكاد لرقة سكانها ... ترد السلام لزوارها »

الباب الرابع — فى الغزل والنسيب — أوله قصيدة عن « عصفورة » ولعلها فتاة صباه الأولى التى غرد كثيرا بحبها وذكرياتها ، قال فى مطلعها :

« عصافير يحبسن القلوب من الحب ... فمن لى بها عصفورة لقطت قلبى
فياليتنى طير أجاور عشها ... فيوحشها بعدى ويؤنسها قربى »

ويختتمها بقوله :

« وقالت: تجلد. قلت: يا مى سائلى ... عن الحزن يعقوبا ويوسف فى الجب
وما ان أرى الأحباب الا ودائعا ... ترد فاما بالرضاء أو الغضب » .

الباب الخامس — فى الأغراض والمقاطيع .. جاءت بأوله قصيدة فى النبى الأعظم محمد — صلى الله عليه وسلم — قال الرافعى فى مطلعها :

« أبت عيناك الا أن تصوبا ... وهذا القلب الا أن يذوبا »
فما لك تحذر الرقباء حتى ... هجرت النوم تحسبه رقيبا »

الى أن يقول :

« رعاك الله وهل مثلى محب ... وقد أمسى « محمد » لى حبيبا
شفيعى يوم لا يجدى شفيع ... وطبى يوم لا أجد الطبيبا »

الباب السادس — فى الرثاء — وبه قصيدتان فقط .. احداهما فى رثاء الأمير عبد الرحمن ، أمير أفغانستان .. والأخرى فى السيد عبد الرحمن الكواكبى ، وفيها يقول الرافعى :

« ولو رفعوا فوق السماكين قبره ... لما بلغوا من حقه بعض واجب
فقد كان ان هز اليراع رأيته ... يصول بأمضى من فرند القواضب
ولم يك هيابا اذا حمس الوغى ... ورفرفت الأعلام فوق الكتائب »

بعد ذلك نرى فى ختام هذا الجزء من الديوان التقاريظ التى قيلت فيه وفى صاحبه يومها ، وهى قصائد للادباء والشعراء محمود سامى البارودى وعبد المحسن الكاظمى ومحمد حافظ ابراهيم ومصطفى لطفى المنفلوطى والشيخ حسين المهدى ومحمد محمود الرافعى ، ابن عمه .

أما الجزء الثانى من « ديوان الرافعى » فقد طبع سنة ١٩٠٣م فى ١٢٥ صفحة ، وصدر بمقدمة نقدية بقلمه عن « سرقة الشعر وتوارد الخواطر » . وهذا الجزء كسابقه فى ستة أبواب ، هى :

١ — فى التهذيب والحكمة .

٢ — فى النسائيات .

٣ — فى الوصف .

٤ — فى المديح .

٥ — فى الغزل والنسيب .

٦ — فى الأغراض والمقاطيع .

وفى الخاتمة أيضا التقاريظ الشعرية فى الرافعى وشعره من الشاعرين البارودى والكاظمى ثم الأستاذ محمد محمود الرافعى . وهذه أبيات البارودى الأربعة :

« (لمصطفى صادق) فى الشعر منزلة ... أمسى يعاديه فيها من يصافيه
صاغ القريض باتقان فان تليت ... صدوره علمت منه قوافيه
مهذب الطبع مأمون الضمير اذا ... بلوته كان باديه كخافيه
حاز الكمال فلم يجنح لمنقبة ... فلست تنعته الا بما فيه »

أما قصيدة الكاظمى فقد بلغت ٤٦ بيتا وفيها يقول الرافعى :

« الشعر فوض أمره ... ونماك فى تفويضه
ان الذى أعطاك أعطى ... القدح كف مفيضه
حلق بقادمة الجناح ... وطر بغير مهيضه
ديوان شعرك حير الشـ ... ـعراء فى تقريضه
ماذا يقول مقر صنو ... ه وأنت رب قريضه

فى عام ١٩٠٥ طبع الجزء الثالث من « ديوان الرافعى » فى ١٥٢ صفحة ، وبه مقدمة طويلة بعنوان « نوع من نقد الشعر » يفتتحها الرافعى بقوله : « الشعر تصوير عالم من المعانى والألفاظ ، فالمجيد من جعله مختصرا من صورة العالم كله ، ولابد من شعاع من الروح اذا تجردت له النفس امتزجت لطافتها بلطافته ، وربما أخذ المرء بلذة التصور فظنها فى مكان نفسه وحسب نفسه فى مكانه » .

وهذا الجزء فى سبعة أبواب — كسابقتها — من الألوان الشعرية المختلفة ، وزاد عليها باب الرثاء ، كما أن باب المديح أضيف اليه « التقريظ » مما كتب به الرافعى شعرا الى الأساتذة صاحبى المقتطف وابراهيم اليازجى وغيرهم من الأدباء والأصدقاء .. ومنهم الشيخ سلامة حجازى ، رائد الغناء ، حيث قال فيه الرافعى قصيدة مطلعها :

« صوت حواء وأبقى منه باقية ... لغيره فحواه البلبل الفرد
تغايرت فيه ألوان الغناء فمن ... تلقيبه بالحجازى يشتكى الرصد
وكم له أنة فى موقف غزل ... يكاد يخلق منها للهوى كبد
وكم يشير له حسن فتحسب أن ... قد هزت القلب فى مهد الضلوع يد
وكم له نظرات هن من طرب ... بين النفوس وأسباب الهوى عقد »

وقد اختتم هذا الجزء الأخير — كالمعتاد — بالتقاريظ الشعرية فيه بأقلام الشاعرين حافظ ابراهيم وابراهيم معلوف — الأديب المهجرى — وصاحب ديوان « تذكار المهاجر » . والاستاذين عمر تقى الدين الرافعى ومحمد محمود الرافعى .

فى هذا الديوان ، نشر الرافعى موضوعا عن الكهرباء ، وهو فصل بالسجع من كتابه « ملكة الانشاء » الذى كان ينوى اصداره ولم يتم فصوله .

وهكذا نجد أن الرافعى قد استوفى فى أجزاء ديوانه ألوانا عديدة فى الغزل والحكم والوطنية والنقد والأناشيد وشئون الدنيا وأحوال الناس وطرائف الموجودات وكثيرا من الأمور التى تعترض الانسان أو يراها فى حياته كفنان وشاعر وانسان .. وهذا أيضا ما نجد بعضه فى ديوان « النظرات » الذى أخرجه الرافعى سنة ١٩٠٨ فى ١٢٨ صفحة بمقدمة

ضافية بعنوان « حقيقة الشعر » .. وقد أشار على غلافه أنه الجزء الأول .. غير انه لم يظهر بعده ديوان آخر ، ونشر بهذا فصلا آخر من « ملكة الانشاء » باسم « الحسن المصنوع » بالسجع المعروف .

وفى ديوان « النظرات » هذا يقول الرافعى فى قصيدة « الشعر والحسان » بنظريته الفلسفية الجميلة عن العلاقة الأزلية بين الرجل والمرأة وأسرارها :

« الطفل أول ما يفـــكر فى التى ... هى أمه حتى يشب ويكبـــــرا
وتراه يَفكِّر بعــد ذلك فى التى ... هى زوجــه حتى يــزيد ويكثــرا
ويعود يَفكِّر بعــد ذلك فى التى ... هى زوجه حتى يمـــوت ويقبرا
يا هذى حسب النســاء فهن أو ... ل من رأى رجل وآخر من يرى»

تاريخ آداب العرب

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية

فى أوائل عام ١٩٠٩م نشر الرافعى مقالة فى صحيفة « الجريدة » ليوقظ ويستفز بها « الجامعة المصرية » التى أنشئت عام ١٩٠٧م . وكان يترقب أن تعمل هذه الجامعة شيئا للادب وتقدمه دروسا لطلابها، ولكنها لم تفعل ، فكتب مقالته هذه يحمل عليها وعلى المنهج المتداعى الذى تسير به لتلقين الطلبة الفن الأدبى ، وكانت حملة على الأساتذة فيها . وكان ما انتظره الرافعى من صحوة الجامعة .. اذ أن مقالته فعلت فعلها ، فتقدمت لجنة الجامعة الفنية تنشر مسابقة تدعو فيها الأدباء لوضع كتاب عن أدبيات اللغة العربية ، فى مدة أقصاها سبعة أشهر وبجائزة للفائز قدرها مائة جنيه ، ثم عادت الجامعة تنشر عن تجديد أجل المسابقة الى عامين وجعلت جائزتها مائتى جنيه مصرى والتزامها بطبع الكتاب الفائز .

وذلك بعد أن نشر الرافعى فى « الجريدة » مقالة أخرى سخر فيها من تقرير الجامعة لتلك المدة الوجيزة والجائزة البسيطة لكتاب سيكون موسوعة للتاريخ العربى عند العرب، ثم قال: «انهم على الأغلب سيعهدون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه فيكون الحاضر لديهم كالغائب عندهم ولا فضل لدارهم الا انها مصدر التلقين ، فاذا طبع الكتاب صارت كل مكتبة فى حكم الجامعة ، لأن العلم هو الكتاب لا الذى يلقيه ، والا فما بالهم لا يعهدون بالتأليف لمن سيعهدون اليه بالتدريس ؟ وهل يقتصرون على أن يكون من كفالة الاستاذ القدرة على القاء دروسه دون القدرة على استنباط الدرس واستجماع مادته ، حتى لا يزيد على أن يكون هو بين تلامذته التلميذ الأكبر .. لم تنفض ادارة الجامعة يدها من قوم هم رؤساء الصناعة وظهور مناصبها العالية ، وألسنة الحكم فيها ، ثم تلتمس

من ضعف الأفراد ما لم تؤمله فى قوة الجماعة ، وهى تعلم أن الحمل الذى تتوزعه الأكف يهون على الرقاب؟ » .

ولم يكن الرافعى ليطمئن الى لجنة التحكيم فى المسابقة بل كان يعتقد أنه هو نفسه أرفع منها ، ولذا فانه عندما انصرف لتأليف كتابه « تاريخ آداب العرب » بجزءيه من منتصف عام ١٩٠٥م الى أواخر عام ١٩١٠ — لم يكن ينوى تقديمه ضمن مسابقة الجامعة ولا طامعا فى جائزتها ، مادام أنه لن يكون هو مدرس الكتاب فى الجامعة ، فقام بطبعه قبل حلول الأجل فى أوائل عام ١٩١١م وصدر الجزء الأول منه مع ظهور الجزء الأول من كتاب جورجى زيدان «تاريخ آداب اللغة العربية» الذى يقول عنه الرافعى : انه هو السبب الذى جعل صاحبه يؤلفه .

وتناول الأدباء « تاريخ آداب العرب » للرافعى ، يقرظونه ويثنون على الجهد الجبار الذى أبدع تكوينه ، وأخرجه فى قالب رصين ، مما جعل الأديب الكبير شكيب أرسلان يقول فى مقالته عنه فى افتتاحية جريدة المؤيد : «فلو كان هذا الكتاب خطا محجوبا فى بيت حرام اخراجه منه لا يستحق أن يحج اليه ، ولو عكف على غير كتاب الله فى نواتىء الأسحار لكان جديرا بأن يعكف عليه .. »

ومما كتب عنه أيضا الأستاذ أحمد لطفى السيد — مقالة طويلة فى « الجريدة » قال فيها : « قرأنا هذا الجزء ، فأما نحوه فعليه طابع الباكورة فى بابه يدل على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكا تاما ، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفا حسنا . وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التى بسطها فى هذا الجزء الا بعد درس طويل وتعب ممل ، وأما أسلوب الرافعى فى كتابه فانه سليم من الشوائب الأعجمية التى تقع لنا فى كتاباتنا نحن العرب المتأخرين فكأنى وأنا أقرؤه أقرأ من قلم المبرد فى استعماله المساواة والباس المعانى ألفاظا سابغة مفصلة عليها ، لا طويلة تتعثر فيها ولا قصيرة عن مداها تودى ببعض أجزائها » .

أما صاحب مجلة المقتطف فقد قال عن هذا الكتاب انه « كتاب السنة » .

ونكتفى بهذه الآراء القصيرة نموذجا لقيمة «تاريخ آداب العرب» وأهميته فى المكتبة العربية ..

والجزء الأول منه يحتوى على بابين : الأول « فى تاريخ اللغة ونشأتها وتفرعها وما يتصل بذلك » ، والثانى « فى تاريخ الرواية ومشاهير الرواة وما تقلب من ذلك على الشعر واللغة » ..

ويقول الرافعى بعد تقديمه للكتاب : « واذا كان عمود التاريخ سياقة الحوادث كما أسلفنا فلا ترغم هذه الحوادث أن تقع فى غير وقتها وتنفصل عن طبيعتها وتتصل بغير طبقتها فى التاريخ ، ولذلك رأينا الطريقة المثلى أن نذهب فى تأليفنا مذهب الضم لا التفريق ، وأن نجعل الكتاب على الأبحاث التى هى معانى الحوادث لا على العصور . فنخصص الآداب بالتاريخ لا التاريخ بالآداب ، كما يفعلون ، وبذلك يأخذ كل بحث من مبتدئه الى منتهاه ، متقلبا على كل عصوره ، سواء اتسقت أم افترقت ، فلا تسقط مادة عن موضعها ولا تقتصر على غير حقيقتها ، ولا تلجأ الى غير مكانها ، ثم لا يكون بعد ذلك فى التاريخ الا التاريخ نفسه ، لا ما يزين به من العبارة المونقة ، ولا ما توصل به الحقائق القليلة من تصورات الخيال وشعر التأليف .. الى أمثال ذلك من مواضع الاستكراه وضيق المضطرب ، وأمثلته فيما بين أيدينا ماثلة لا تحتاج الى انتزاع ، وهى على نفسها شاهدة فلم يبق فى أمرها نزاع .. » .

وفى عام ١٩١٢م صدر الجزء الثانى من هذا الكتاب وموضوعه « اعجاز القرآن والبلاغة النبوية » وهو الباب الثالث حيث تكلم الرافعى — (فى منزلة القرآن الكريم من اللغة واعجازه وتاريخه وفى البلاغة النبوية ونسق الاعجاز فيها) ..

وفى مقدمته يقول الرافعى : « ولا يخفين عليك أن ذلك فى مرده كأنه باب من فلسفة اللغة ، فهو لاحق بما قدمناه من أمرها ، يستوفى ما تركناه ثمة ، ويبلغ القول فى محاسنها وأسرارها ، فيكون بعض ذلك تماما على بعضه ، اذ اللغة هناك مفردات ،واللغة هنا تراكيب ، وليس رجل ذو علم بالكلام العربى وصنعته بنازع أو يرتاب فى أن القرآن

معجزة هذه العربية فى بلاغة نظمه واتساق أوضاعه وأسراره ، فمن ثم كانت مادة الاتصال فى نسق التأليف بين هذا الجزء والذى قبله .. » .

ولم يكن « اعجاز القرآن » بأقل حظا من الجزء الأول فى التقريظ والاحتفال به ، فكتب عنه الكثيرون ، وكان مصدر اعجاب كبير فى الوسط الدينى .. وقال عنه الزعيم سعد زغلول « انه تنزيل من التنزيل » ونقتطف هنا سطورا مما كتب عنه آنذاك ، ففى جريدة الأهرام كتب الأستاذ محمد صادق عنبر كلمة قال فيها : « انك من البلاغة بحيث لا يصفك كما أنت الا قلمك أنت ، وما أجد فى الثناء على كتابك أقل من أن أقول لقد أعجزت ، اذا لم أجد لغيرك أكثر من أن أقول له احسنت ... لقد جئت بكتاب يقاس عليه فى البلاغة أما هو فجل عن القياس . فمن يعب عليك من بعد فما أطول هم فصوص الملح بفص الماس » .

وكتب الأستاذ عبد العزيز البشرى فى جريدة « كوكب الشرق » كلمة قال فيها : « قرأت (اعجاز القرآن) فاذا أبلغ ما كتب مخلوق فى كلام الخالق .. فان ما جلوت من البيان لمن الالهام يعلو على التصرف ويجل عن التأليف » .

أما الأستاذ عباس محمود العقاد ، فقد شذ عن هذا الاستحسان والتقدير لذلك العمل الجليل ، بأن تعرض لنقد « اعجاز القرآن » فى جريدة البلاغ .. فرد عليه الرافعى فى مقالة أرسلها للبلاغ ، ولكنها لم تنشرها بل كتبت تعتذر له ، فاستاء منها وانصرف عن الكتابة اليها بشىء لذلك السبب .. ومنذ هذا العهد بدأت الخصومة بين الرافعى والعقاد وظل الأول ينتظر ما يصدر عن الثانى من أخطاء وتهجمات ، ويتحين الفرص ليضعه فى ميزان لا يرحم .. وكان صفاء دام سنوات قليلة ، ثم انفجرت القنبلة[1] .

ومات الرافعى تاركا أصول الجزء الثالث من (تاريخ آداب العرب) مخطوطة على مكتبه .. وقد صدر بعد وفاته بثلاثة أعوام بمقدمة للأستاذ

---

(١) سيأتى الحديث عن ذلك عند الكلام عن الكتاب النقدى (على السفود) .

محمد سعيد العريان — ككل كتب الرافعى التى يكتب مقدماتها ويضبط أصولها فى الطبع ، وانه لعمل جليل مشكور ، فقد لقى الكتاب تقديرا وتقريظا ملحوظا أكثر من أى كتاب ظهر فى ذلك الحين .

وهذا الجزء الثالث هو نهاية التاريخ الذى كتبه الرافعى ، ويحتوى على بقية الأبواب التى ذكرها فى كلمته بالجزء الأول عن (نمط الكتاب وأبوابه) .. فقد أورد أن الباب الرابع (فى تاريخ الخطابة والأمثال : جاهلية واسلاما) .

والباب الخامس — فى تاريخ الشعر العربى ومذاهبه والفنون المستحدثة منه وما يلتحق بذلك . (السادس) : فى حقيقة القصائد المعلقات ودرس شعرائها .

السابع : فى أطوار الأدب العربى ، وتقلب العصور به وتاريخ أدب الأندلس الى سقوطها ومصرع العربية فيها . (الثامن) : فى تاريخ الكتابة وفنونها وأساليبها ورؤساء الكتاب ومايجرى هذا المجرى . (التاسع) فى حركة العقل العربى وتاريخ العلوم وأصناف الآداب جاهلية واسلاما (بالايجاز) التاريخى . (العاشر) : فى التأليف وتاريخه عند العرب ونوادر الكتب العربية . (الحادى عشر) : فى الصناعات اللفظية التى أولع بها المتأخرون فى النظم والنثر وتاريخ أنواعها . (الثانى عشر) : فى الطبقات وشىء من الموازنات .

على أن الذى طبع فى هذا الجزء ينقص أربعة أبواب — عما ذكره المؤلف وهى : الباب الرابع والثامن والتاسع والثانى عشر (الأخير) لانها لم تكن فى (المخطوط) — كما يقول الأستاذ سعيد العريان — (الا فهارس وجزازات وأرقام صفحات فى مراجع مختلفة) .

أصبح الرافعى أحد الفرسان الأوائل : الكاتب والشاعر والعالم — بكل ما يتناول الكتابة فيه ويخطه يراعه .. وفى كتاب (حياة الرافعى) يشرح الأستاذ العريان بعض أسباب الاتجاه فى أدب الرافعى وتطوره — قال : « هل كان عن قصد ونية أن يتخلى الرافعى عن أمانى الشباب وأوهام

الصبا وأخيلة الفتيان وأحلام الشعراء ، ليقف نفسه على العربية وتراث العربية يستبطن أسرارها ويخوض على فرائدها ، وعلى الاسلام وأبطال الاسلام يكشف عن مآثرهم ؟ الحق أن الرافعى لم يكن له خيرة فى شىء من ذلك ولا كان يعنيه ، ولا توجهت اليه نيته ، ولكنه ألف تاريخ العرب لأنه وجد فى نفسه رغبة الى أن يؤلف فى تاريخ آداب العرب ، وكتب فى اعجاز القرآن لأن اعجاز القرآن باب فى تاريخ الأدب ، فلما أخرج كتابيه الى الناس لم يلبث أن ارتد اليه الصدى مما يقول الناس ، فاذا هو عند أكثرهم أديب ليس مثله فى العربية ، واذا هو كاتب من الطراز الأول بين كتاب العــربية ، واذا هو صاحب القــلم الذى يكتب عن اعجاز القرآن فيعجز ، ويتحدث عن الاسلام حديث المؤمن الى المؤمن ، حديث قلب الى قلب ليس بينهما حجاب فكل ما ينطق يبين .. ووجد الرافعى كأنما اكتشف نفسه .. لقد عرف الرافعى من يومئــذ أن عليه رسالة يؤديها بين أدباء الجيل وأن له غاية أخرى هو عليها أقدر وبها أجدر ، فجعل الهدف الذى يسعى اليه أن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال ، وأن ينفخ فى هذه اللغة روحا من روحه يردها الى مكانها ويرد عنها ، فلا يجترىء عليها مجترىء ولا ينال منها نائل ولا يتندر بها ساخرا ، الا انبرى له يبدد أوهامه ويكشف عن دخيلته ؟ ونظر فيما يكتب الكتاب فى الجرائد ، وما يتحدث به الناس فى المجالس ، فرأى عربية ليست من العربية ، هى عامية متفاحصة أو عجمة مستعربة تحاول أن تفرض نفسها لغة على أقلام المتأدبين وألسنتهم ، فقر فى نفسه أن هذه اللغة لن تعود الى ماضيها المجيد حتى تعود (الجملة القرآنية) الى مكانها مما يكتب الكتاب وينشىء الأدباء وما يستطيع كاتب أن يشحذ قلمه لذلك الا أن يتزود له زاده من الأدب القديم .

وعاد الرافعى يقرأ من جديد ، ينظرفيما كتب الكتاب وأنشأ المنشئون فى مختلف عصور العربية ، يبحث عن التعبير الجميل ، والعبارة المنتقاة ، واللفظ الجزل ، والكلمة النادرة ، فيضيفها الى قاموسه المحيط ومعجمه الوافى ، لتكون له عونا على ما ينشىء من الأدب الجديد الذى يريد أن يحتذيه أدباء العربية » .

حديث القمر - المساكين

فى عام ١٩١٢م قام الرافعى برحلة استجمام واستطلاع الى موطن أجداده بالشام وطرابلس، ثم عرج منها الى لبنان، وكأنما كان على موعد مع القدر .. مع فاتنة لبنانية مهذبة تعالج الصحافة ؟. التقى بها وجعلته يسرح بخياله ومشاعره فى جمالها الملائكى ، فتعرف عليها واشتغل بها خاطره وتعلق بها قلبه الشاعرى ، وقد كان فى ظمأ الى ملهمة ينظم فيها ويكتب عنها بفنه وبأسلوبه المبدع .. واسم هذه الفاتنة الصحفية (مارى) — وهى غير الأديبة التى اشتهرت باسم (مى) وأحبها فيما بعد — ورجع الرافعى الى مصر وفى دماغه عود الثقاب قد اشتعل ، وفى قلبه زيت الحقيقة قد سال ، فشرعت يراعته تكتب (حديث القمر) فى فلسفة الجمال والغزل، ويقول فى افتتاحيته : « هذه مقالة صرفت فيها وجه الحديث الى القمر وبعثت فى أشعة الفجر كلماتها .. ثم يقول : « كتبتها وأنا أرجو ان تكون الطبيعة قد أوحت الى بقطعة من مناجاة الأنبياء التى كانت تستهل فى سكون الليل فيعيها كأنه ذاكرة الدهر ، وأن تكون قد بثت فى ألفاظى صدى من تلك النغمات التى كان يتغنى بها أطفال الانسانية .. فتخرج من أفواههم ممزوجة بحلاوة الايمان الفطرى ، وتذهب فى السماء متهادية كأنها طائرة بروح من اطمئنان قلوبهم ، وتسيل فى ضوء الصباح وظل الشمس ونور القمر كأنها فى جمال الطبيعة أفكار طيور مغردة تدور على ألسنتها » .

الى أن يقول عما قصد اليه : « وكتبتها أتناول ألفاظها من تحت لسانى وأكشف من قلبى معانيها ، وأنفض عليها ألوان الطبيعة التى تصور أحلام النفس وخيالاتها وأنا أرجو أن أكون قد وضعت لطلبة الانشاء المتطلعين لهذا الأسلوب أمثلة من علم التصور الكتابى الذى توضع أمثلته ولا

توضع قواعده ، لأن هذه القواعد فى جملتها الهام ينتهى الى الاحساس واحساس ينتهى الى الذوق، وذوق يفيض الاحساس والالهام على الكتابة جميعا فيترك فيها حياة كحياة الجمال لا تداخل الروح حتى تستبد بها ، ولا تتصل بالقلب حتى تستحوذ عليه فتكون له كأنها فكرة ذاته .. »

وبين الرافعى غرضه من تأليفه لحديث القمر — بايجاز .؟ فوضع على غلاف الكتاب هذه العبارة : «وقد كتب على نمط خاص من الكتابة العربية يجعل طالب الانشاء بادمان قرائه وتأمله منشئا ، اذ يربى فيه ملكة التخيل الصحيح التى هى أصل البلاغة ولا بلاغة بدونها »[1] .

بعد ذلك عكف الرافعى على نسيج آخر : يصف من أحوال الناس البائسة ، وقد تأثر بحالات الفقر والمجاعة التى اجتاحت الشرق بما فيه مصر — أثناء الحرب العالمية الأولى ، وتألم لهذه النفوس المعذبة فى سبل الرزق ، وهاجت نفسه لمرائى عدة جعلت تعتمل فى خواطره حتى أبصر بشخصيته (الشيخ على) المتواضعة الفيلسوفة فى فقرها ، فراح يكتب على لسانها مؤلفه (المساكين) ويقول عنه : « أردت به بيان شىء من حكمة الله فى شىء من أغلاظ الناس » .

وأصدره فى طبعته الأولى عام ١٩١٧ — ويقول فى مقدمته : « وما دام فى الغيب أيام وآمال ، وفى الدنيا فقر وحسد ، فهناك الطمع .. ومادام لهؤلاء الناس فى أشيائهم ما تحملهم أخلاقهم على الضن به ، أو يكون سبيله من الطبيعة أن يضن به ، وفيهم الفقر والحسد والطمع ، فثم خبء السوء والرذيلة الماحقة ثم البخل ، وان البخل وحده لفى حاجة الى نبى يصلحه .؟ هذه أخلاق أعرقت فيها الانسانية ولابد منها ومن فروعها حتى يظل الناس ناسا لا ملائكة ولا شياطين ، فان من عجيب حكمة الله أنه لاصلاح للعالم الا بالفساد الذى فيه .. بيد أن فى كل شر جهة من الخير أو جهة تتصل بالخير ، فاذا صلح فهمه صلح هو أيضا أو كأنه صلح

---

(١) نستكمل عرض الكتاب فى الفصل الخاص بحب الرافعى .

لظهور حكمته والوقوف به عند حد الشر الطبيعى ، وهو الشر الذى لابد منه .. » .

ويؤكد الرافعى أن (الشيخ على) شخصية حقيقية ومن قرية تدعى (منية جناح) فى دسوق ، أحد مراكز مديرية الغربية ، وقد توفى عام ١٩١٩ م .

ووصفه الرافعى فى الفصل الأول من الكتاب الذى بلغ أكثر من (٢٣٠ صفحة) من الحجم الكبير ، وقال عنه انه : « رجل كأنه قطعة من الأبد لا أمس له يتعقبه ولا غد له يترقبه ، بل الحياة عنده يقظة طويلة والموت نوم أطول » .

والفصل الثانى من الكتاب (فى وحى الروح) ، والثالث (الفقر والفقير) ، والرابع (مسكينة مسكينة) والخامس (لؤم المال ووهم التعاسة) وهم الحياة والسعادة) ، والسابع (سحق اللؤلؤة) وهو أطول فصول الكتاب ، والثامن (الحظ) ،والتاسع عن (الحرب) التى روع فيها العالم عام ١٩١٤ م ، والعاشر (الجمال والحب) ثم الأخير (الدين ولادة ثانية) . وفيه يقول الرافعى بحكمته وفلسفته : « لا تسمو حياة الفرد الا اذا كان جزءا من كل ، ولا يجتمع الكل الا اذا كان تاما فيما هو كل به . السبيل أن يدفع الفرد أبدا الى خارج حدوده الذاتية الصغيرة ، وفكرة الكل هذه لا يصورها ولا يستوفى معانيها الا الدين الصحيح اذ هو خروج بالفرد من شهواته التى تفصله من غيره الى واجباته التى تصله بغيره ، وانتزاع له من ذاتيته الى انسانيته ودفع بالانسانية نفسها الى الكل الذى هو أسمى » .

وفيما بين الفصلين التاسع والعاشر قصيدة رائية بعنوان (على الكوكب الهاوى) فى ستة وسبعين بيتا . وهى عن (حسناء أفقرتها الحرب وكيف تتلقاها الحقيقة) ؟. يقول الرافعى فى مطلعها :

طريدة بؤس مل من بؤسها الصبر   وطالت على الغبراء أيامها الغبر »

وفيها يقول أيضا :

« رمى الدهر أهليها بحرب ولم يرد ... بها الشر ، لكن الحروب هى الشر
ومن يحطم الكأس الروية وحدها ... فقد ذهب اثنان : الزجاجة والخمر
تقاسمت الحسن الالهى واثنتى ... يقاسمها ، فالأمر بينهما أمر »

الى أن يقول :

« رمت عينها يمنى ويسرى فلم تجد ... على الأرض خلقا ليس فى جنبه غدر
رأت كل مخزاة من الشر تلتوى ... ويهرب ذعرا من جنايتها العذر
رأت أثرا تدنى به الأرض والسما ... وليس سوى الانسان فى جرحه ظفر
رأت ذلك الانسان يطغى بعلمه ... ويجهل أن العلم عن جهله زجر »

ويختتمها بقوله :

« ألا انما الدنيا سلاليم يرتقى ... بها الناس تغريهم أواخرها الغر
تذروا علاها للكمال ، وعندهم ... من العلم أسباب يقر لها السحر
فما برحوا يرقون كل بعيدة ... ولم يعلموا أين الكمال ولم يدروا
فلما علوا واستحمقوا وتتابعوا ... وغرهم بالله ذلك فاغتروا ..
تهاووا على أعناقهم وتحطمت ... بهم درجات كان من فوقها النصر
كذلك سلاليم الحياة ، فكلنا ... طموح لأعلاها ، وفى الوسط الكسر

الأناشيد

وضع الرافعي عدة أناشيد قومية حقيق بها أن تجمع ويضمها كتاب . ومنها ما طبع فى دواوينه مثل « نشيد الملك ، ونشيد الطلبة ونشيد بنت النيل ، ونقتصر هنا على ثلاثة أناشيد مما أنشأه منذ عام ١٩٢٠ ، الأول : النشيد الوطنى (الى العلا الى العلا) .. ولهذا قصة : فقد تكونت فى مصر عام ١٩٢٠ م (لجنة ترقية الأغانى) ونشرت عن مسابقة لوضع نشيد قومى لمصر بجائزة « مائة جنيه » للفائز ليكون هذا النشيد (رمزا خالدا لما يختلج فى صدور الأمة من الطموح الى المحل الأرفع) ، وأن لا يزيد زمن المسابقة عن شهر ديسمبر ، وتقدم الرافعي بنشيده فى ٢٧ أغسطس ضمن من تقدموا ، ثم نشرت اللجنة تمديدا لزمن المسابقـة ، ثم تمديدا ثالثا ورابعا ، وكان صبر الرافعي قد نفد فى صدور حكمها ، وأحس بأن اللجنة تغالط الواقع وأن لها رأيها فيمن ستختار نشيده وتعتبره فائزا . فما كان من الرافعي الا أن طبع نشيده وأرسله حيث لحنه الكثيرون ، ثم استقر الاتفاق على اللحن الذى وضعه الموسيقار منصور عوض ، وقال الرافعي عن نشيده هذا انه انشـيد للامة وليس للجنة .. واهتبلت اللجنة هذه الفرصة لتنشر بأن بعضهم — وتعنى الرافعي — نشر نشيده فى الصحف وأذاعه فى كراسة قبل أن ينتظر الحكم فيه ، وأنها تنظر فيما لديها من الأناشيد بسرية تامة ؟ ثم رشحت نشيد أحمد شوقى ونشيد حافظ ابراهيم للجائزة ، وثار الرافعي ونشر على الملأ تفاصيل مسرحية المهزلة التى مثلتها لجنة الأغانى ، وحمل عليها واشتد فى نقدها ونقد النشيد الأول — على صفحات الصحف ، ثم جمع كلماته النقدية وضمها الى ما كتب من تقريظ نشيده بأقلام الأساتذة أمين الرافعي وحافظ عامر ومحمد صادق عنبر ، وأصدرها فى كتاب باسم (النشيد المصرى الوطنى) .. ويقول الرافعي

انه عندما نوى طبعه رأى فيما يرى النـائم أنه يضع نشيدا وطنيا آخر بالزجل ، فنظم مطلعه وصحا وهو يتلوه :

« أدب بـــــلادى بيتهنـــا ومصـــر العروســـة بتحنـــا
خدوا نشـيد زهـر الجنـــة زفـــوا عريس الاســتقلال »

ومما هو جدير بالذكر أن نشيد شوقى الذى رشحته اللجنة لم يكن لهذه المسابقة فقد نظمه قبل ذلك لفرقة عكاشة التمثيلية لتفتتح به موسمها. ثم قدمه للمسابقة .. وهذا مطلعه :

« بنى مصر مكانكمـــو تهيـــأ فهيـــا مهـدوا للمجـد هيـــا
خذوا شمس النهار له حليـــا ألم تك تــاج أولـكم مليـــا »

وبذلك استهدف شوقى لنقد الرافعى فى حملته على اللجنة ؟. ولكنه كان معجبا بشاعريته وروائعه .. ولذلك لم يتأخر عن أن ينصفه فى المقالة التى كتبها بطلب من مجلة (المقتطف) عند وفاة شوقى مساء ١٤ أكتوبر عام ١٩٣٢ م وكانت كتابته هى أطول مقالة وأدقها مما نشر فى المقتطف بهذه المناسبة [١] .

وكتب الرافعى فى رسالته الى الأستاذأبى رية يوم ١٢ نوفمبر يقول : «ان مقالة شوقى كان لها أثر بعيد حتى ان (نقولا حداد) كتب لى انه لا يجوز أن يقرأ عن شوقى أو ينشر غير هذه المقالة فالتمسها واقرأها قراءة بحث .. أما ان شوقى أشعر من البارودى فهو الواقع لأن البارودى لا يزيد على قوة الأسـلوب وفخامتــه ، ولكن الشــعر فى معانى شوقى ومواضيعه » .

ونثبت هنا نشيد الرافعى بكامله — والذى تحدثنا عنه :

---

(١) توجد المقالة بكاملها فى الجزء الثالث من (وحى القلم) للرافعى .

إلى العلا

الى العلا الى العلا بنى الوطن
الى العلا فى كل جيل وزمن
الى العلا كل فتاة وفتى
فلن يموت مجدنا كلا ولن

* * *

الى الامام للامام للامام
لمصرنا عهد لمصرنا ذمام
يا مصر والهمة تدفع الهمام
لمصرنا على بنى الدنيا المنن

* * *

مصر العلوم والفنون من قدم
أيام علم غيرنا دمع ودم
أيام لم تثبت لدولة قدم
وما سوى توحش العالم فن

* * *

رسا أبو الهول ركينا وربض
فالهول كل الهول منه لو نبض
ربضة جبار على الأرض قبض
فهم فاستعدى فزلزل الزمن

* * *

بعزم مصر غالب الدهر والهرم
ونيل مصر يملأ النفس كرم
وشمس مصر تضرم الذكا ضرم
وخصب مصر ينبت الخلق الحسن

* * *

والصبر فى المصرى صبر وجلد
وما كمصر فى البلاد من بلد
خلت خصوم أرضه وهو خلد
ثراه للطاغى وللباغى كفن

* * *

هيا اذن هيا اذن الى العلا
أهلى ولكن أنت أنت أولا
يا مصر لا نفسى ولا مالى ولا
وأنت أنت كل سرى والعلن

* * *

يا مصر كلنا لمجدك الفدا
فلن تراعى يا بلادى أبدا
نقتلع الانجم لو كانت عدى
لا عاش من بروحه عليك ضن

* * *

لا الضعف يوهى عزمنا ولا الضجر
هيهات ما الاطواد فى قيد تجر
خلق من الحديد أو من الحجر
فمن اذن يقيد الاحرار من

* * *

حـرية البــلاد عــزة الأمــم ... ان لم تنلها أمة عاشـــت رمم
فــدا النفوس حرة فــدى الذمم ... فدا بــلادى أنا روحــا وبــدن

* * *

ايماننا كنيســـة ومسجدا ... دين اتحــاد للبــلاد وهــدى
وكل ما فى العمــر يوما وغــدا ... وكــل ما نمــلك للمجــد ثمــن

* * *

فلنحى فى أعمــالنا أجــدادنا ... ولنحيى فى آمالنــا أولادنــا
ولنحيى مصريين مهمــا اعتمادنا ... ولنحى مصريين وليحيى الوطن

* * *

« حمــاة الحمى يا حمــاة الوطن ... هلموا هلمــوا لمجــد الزمــن
لقد صرخت فى العــروق الدمــا ... نموت نموت ويحيــا الوطن »

الى العــلا الى العــلا .. الخ

انه لحرى أن يحيا هذا النشيد فى عهد ثورة التحرير اليوم وتخليص البلدان العربية من آثار الاستعمار والطغيان — بقيادة زعيم القومية العربية الرئيس جمال عبد الناصر الذى وفق فى حركته المباركة وخطواته الجريئة لايقاظ الوعى العربى وتوحيد الصفوف فى مقاومة العدوان والاحتكار والاستعباد .

وعندما انبعثت الحركة الوطنية فى مصر على عهد الزعيم سعد زغلول وضع الرافعى نشيده (اسلمى يا مصر) وأهداه الى الزعيم — وهو فى جبل طارق — مع رسالة قال فيها : « وما أردت باظهار نشيدك الا أن تظهر فى كل فرد من الأمة على قدر استعداده ويبقى اسمك الجليل مع كل مصرى على الدهر ليكون مصدرا من مصادر امداده » .

وأصبح هذا النشيد نشيدا رسميا لفرق الكشافة المصرية .

وفى عام١٩٣٦م أجرت الحكومة مسابقة نشيد قومى يتفق وسمعتها ليهتف به الشعب . فتقدم الرافعى بنشيده (اسلمى يا مصر) مع نشيد جديد آخر دعاه (نشيد الاستقلال) .. وانصرفت لجنة فحص المسابقة عن هذا النشيد الجديد ومنحت الرافعى الجائزة الثانية على نشيده (اسلمى

يا مصر) . غير أن (نشيد الاستقلال) أصبح يردد فى مدارس معظم البلدان العربية وينشده الطلبة حتى فى مدارسنا بالحجاز ، وهذا مطلعه :

« حمـــاة الحمى يا حماة الوطن   هلمـــوا هلمـــوا لمجـــد الزمـــن
لقـــد صرخت فى العـــروق الدما   نمـــوت نمـــوت ويحيـــا الوطن

وللرافعى نشيد وضعه كشعار للشبان المسلمين عام ١٩٢٧ م . وقد كان ينوى أن يضيف الى أناشيده أخرى غيرها ويخرجها كلها فى ديوان سماه (أغانى الشعب) .. ولكن المنية سبقت اليه فحالت دون مبتغاه فى ذلك ، وفى آمال أخرى كان يجند لها فكره وبيانه ليخرجها للناس ثروة الى ثروة ضمن رسالته الاصلاحية .

رسائل الأحزان، السحاب الأحمر، أوراق الورد

هذه هى الحلقات الثلاث فى حب الرافعى الأخير ، وفلسفته الجمالية فى هذا الحب الخالد ، ولوعاته وأحزانه وفنون أشـــواقه .. بل وفلسفته اللغوية والبيانية والشعرية .. ان الرافعى أديب فنان ، خَلق من عاطفته جوا ابداعيا فى الكتابة والأسلوب ما كان بمستطيع ايجاده والتحدث فيه بمثل بلاغته ونبوغه ولغته الا القليل ..

والحديث عن حب الرافعى بتفصيل .. مجاله الفصل التالى ، وانما نعنى هنا بالدوافع الأولى وبالزمن الذى وضعت فيه تلك الكتب الثلاثة .. أحب الرافعى ، مع من أحب — الأديبة الجميلة الآنسة (مى) — من رواد مجلسها الأدبى — وفتن بها معجبا بحسنها الفاتن وبأدبها المتكامل ، فكان حبه لها هو الشرارة التى انطلق بها فكره ووجدانه يسبحان فى معـانى الجمال ويستوحى هو الفن والشعر والابداع .. والرافعى بكبريائه فى حبه وبغريزة حب التملك للحبيبة .. لم يكن ليعجبه أن تلك تنصرف الى غيره فى حضرته .. وجاء اليوم الأخير لتركب رأسه الكبرياء ، وهو يرى (مى) منصرفة فى حديث طويل مع أديب مثله ، وما كان ليسمع ما يدور بينهما ، ولكنه توهم أن زميله هذا فى نشوة .. ولم لا ؟ فان كل الأدباء كانوا يطوفون بالنـادى الذى يشع بالظرف الى جانب الأدب والحديث الشائق .. وكان يومها المجمع الوحيد الذى تهيئه امرأة فى مصر ، وأصبح لها فضل الهام الكثيرين — وما بها من ريبة .؟ بل وانهـا المثل السامى للبراءة وللأدب النسوى الرفيع ..

قلت ان الرافعى توهم .. بل انه تخيل أنه قد أهين وأن قداسـة حبه قد استعدى عليها ، فما كان منـه الا أن خرج مغضبا ثائرا وكتب لصاحبته رسالة القطيعة ، ثم انصرف الى قرطاسه وقلمه ، يبثهما مشاعره

وينفث عليهما الهزات العنيفة التى غمرت نفسه وأعصابه من شجن الذكرى ولهيب العاطفة ولوعة القلب الهاجر ، ويوجه حديثه فى رسائل يكتبها الى الصديق الذى خلطه بذاته .. الى نفسه يصور لها شكاته وقصته وأحلامه — فكانت (رسائل الأحزان) .. وقد بدأ كتابتها وانتهى منها فى أقل من شهر ونصف شهر بين شهرى يناير وفبراير من عام ١٩٢٤م .. ويصف نفسه أو صديقه الذى عمد الى الكتابة باسمه ، فيقول : « أما هذا الصديق فأعرفه أسلوبا من الكبر ولكن على نفسه ، ومن الشذوذ ولكن فى نفسه . كأنما فتحت أفواه عروقه جنينا وملأتها الوراثة من دم ملك كان فى أجداده .. مستعصب شديد المراس ، فهو أبدا فى حياته كالملك الذى حالت السيوف والأسنة والقوانين بينه وبين تاجه ، فجعلت له حياتين يفصل الموت بينهما ، اجتمع من تأريخه انسان بلغ الزمن تحت عينيه نيفا وأربعين سنة ، فهو فى تأريخ أحزان استفاضت مسائله فى فصول وأبواب ، جف القلم منها على نيف وأربعين جزءا ، كلماتها فى حوادثها ، وأن السطر منها ليرعد فى صحيفته من الغيظ ، وان الكلمة لتبكى بكاء يُرى ، وان الحرف ليئن أنينا يُسمع ، وان تأريخه كله لينتقص ، لأنه مصيبة ملكية مصورة فى ملك ... » .

والكتاب يحتوى على خمس عشرة رسالة عدا ثلاثة بحوث هى : (المقدمة والذكرى وخاتمة الكتاب) ومقطوعة شعرية بعنوان « بعد ما كنت وكنا » . والرسالتان الثالثة والخامسة شعرا ، أما الرسالة الثامنة فتبتدىء بأربعة عشر بيتا ، يقول فى ختامها شعرا :

« الحسن ألوان يمازج بعضها ... بعضا لتصوير الهوى الفتان
وأرى الجوى والسحر والايمان قد ... مزجت ، فمنها هذه العينان »

كما أن الرسالة الثانية عشرة تنتهى بسبعة أبيات وصفية قالها بلسان عمر الخيام ، كذلك الرسالة الرابعة عشرة تبتدىء بهذه الأبيات الأربعة :

« كم أسأل الدر عن معناك باسمة ... والورد عن لفظة قد أطبقت فاك
لا الدر يدرى ولا فى الورد لى خبر ... أرويه عن شفتيك أو ثناياك
يا نجمة أنا فى أفلاكها قمر ... من جذبها لى قد أضللت أفلاكى
النار بالنار لا تطفأ اذا اتصلت ... فكيف أصنع فى قلبى لينساك ؟ »

* * *

ويزداد كبرياء الرافعي بل يشتط في كبريائه — كتاب الرسائل الحزينة هذه — مطبوعا الى صاحبته ، ويتلقى رسالة منها تجعله يحنق ويثور ويغضب على قسوة المرأة واؤمها ، وعلى جنون حبه وشوقه ، فراح يؤلف (السحاب الأحمر) ، ويقول عنه : « أرأيت القلم الذى تراءى لى السحاب الأحمر فى نصابه بين عينى والمصباح ؟ ضع النصاب بين عينيك والمصباح وانظر .. ألست ترى سحابا يترقرق بالدم كأن قلبا جريحا ينزف ؟ فى شعاعة هذا النور تراءت لى هذه الخواطر التى تقرؤها فى السحاب الأحمر .. » .

ويبدأ الكتاب بكلمة فى تفسير الحب والبغض ، وينحو فى (الفصل الأول — القمر الطالع) الى الاستذكار والتحدث عن فاتنة لبنان » . ملهمته فى (حديث القمر) — ثم يأتى بالفصل الثانى — النجمة الهاوية) ليغيظ — كما يتوهم — صاحبته الأديبة الفاتنة بآرائه وخواطره فى طائفة من النساء تعمد السخرية بهن .

والرافعي كعادته لا ينسى وهو يكتب ، أن يعالج شئون الناس ويستخبر مآسيهم من حالاتهم السافرة المؤلمة ؟. وهو يعقد حديثه فى (الفصل الثالث) عن (السجين) الذى تبعد به عربة السجناء عن أولاده وزوجه المتعلق قلبها به — لينال مصيره المحتوم ، وهنا يتساءل الرافعي : « أجرم السجين فأخذ بذنبه ، فما ذنوب هؤلاء جميعا ؟.. نزت كبدى لما رأيت الحب الهالك يستنفض امرأة السجين ويسوقها جامحة فى عنان الغيظ تترامى على وجهها .. » .

* * *

وفى الفصل الرابع (الربيطة) يروى الرافعي خبر امرأة فرنسية اتخذها رجل مصرى (ربيطة) فى بيته — وهى البغى التى تربط بأجر أو بعقد مدنى — وقال الرافعي ناقدا ثائرا للتقاليد الوطنية البريئة — بعد أن أورد نصف القصة : « أما والله انكم فئة لا تعد الا فى مصائب وطنها ، انكم لكالأجنبى ، مادام أحدكم لايصل أمومة أولاده بتأريخ أمه ، وانكم لكالغاصب ما دمتم تغصبون حتى نساء الوطن فى رجال الوطن ، وانكم

لكالعدو ما دام كل واحد منكم حربا على بيت .. ألا فدعونا من الجاهلين ، فقد يكون من بعض عذرهم الجهل ، ومن المتلصصين فمن عذرهم الحاجة ، ومن المفسدين فمن عذرهم سوء التربية ، ومن الساقطين فعذرهم ضعف النفس ، ومن الخاملين فعذرهم الترك والاهمال ، ثم اعطفوا على هؤلاء مائة واو أخرى فكلها مسوغة أعذارها المحمولة على محاملها ، وكلها أقرب الى الدهماء منها الى المتعلمين ، والى أخلاط الناس منها الى الخاصة ، والى السفلة منها الى العلية .. ولكن ما عذركم أنتم عن شهوات أنفسكم وايثاركم هذه الشهوات واستهتاركم فى هذه الأثرة ، يعجز أحدكم أن يكسر جماح نفسه فيجنى على نفس من نساء وطنه هى التى زهد فيها واستبدل منها ، وعلى نفوس من أبناء وطنه هم الذين سيعقبهم من ذريته ويأتى بهم للبلاد أجساما غابت قلوبها ، ونفوسا بردت دماؤها ينزعهم العرق الأجنبى من أمهاتهم اللائى ولدنهم اذا حمى دم البلاد لبعض أغراضها ويكونون فى أمراضها من أسباب موتها وفى صحتها من أسباب أمراضها .. » .

***

وفى الفصل الخامس يتكلم الرافعى عن (المنافق) ، وفى السادس يصف (الصغيرين) .. فيتحدث عن عاطفة الأم وطفليها اللذين ضلا عنها حينا ثم التقت بهما .. فالرافعى يترجم مشاعرهم فى كل الحالات ثم يقول اجمالا عن الطفولة البريئة : « وهؤلاء الأطفال الصغار هم انسانية على حدة ، فكل أب هو أبو هذه الانسانية كلها ، ولن يطيق من كان له طفل أن يرى صغيرا ضائعا فى الطريق يستهدى الناس الى أهله ويبكى عليهم ، أو طفلا جائعا يعرض على الناس وجهه المنكسر ويستعطفهم بصوته المريض أن يطعموه ، أو طفلا يتيما قد ثكل أهله وضاق بقسوة أوليائه فانطرح فى ناحية يبكى ويتفجع ويسأل من يعرفون الموت : أين أبى ؟ أين أمى ؟ هؤلاء جميعا ليس بينهم وبين قلوب الآباء والأمهات حجاب ، اذن ليس فيهم من الناس الا اضطرارهم الى الناس ، فهم الانسانية الرضيعة التى خلق من أجلها القلب الانسانى فى شكل ثدى » .

***

أما الفصل السابع عن (الشيخ على) فهو الذى نقله من كتابه هذا (السحاب الأحمر) الى كتابه السابق (المساكين) وعنونه باسم (الجمال والحب) لأنه كان يتكلم فيه بلسان تلك الشخصية المتواضعة ليستنتج فكرة عنه فيما بين سيطرة الجمال وتحكم الحب .. فيقول الرافعي : « قال الشيخ على : « ثم يبرأ المجنون ويثوب الى عقله فيعرف أنه كان مجنونا ، ويبغض المحب أو يسلو ويبرأ من وهمه فى تلك المرأة فلا يرى الا أنه كان بها مجنونا ، أفلا يكفى هـذا — ويحك — فى الدلالة على أن الحب والجنون من أم واحدة وان اختلف أبواهما ؟ » » .

وفى الفصل الثامن (الشيخ أحمد) يكتب الرافعي مستلهما روح ابن عمه الشيخ أحمد الرافعي الذى سبق أن جاء الى الحجاز للحج وتوفاه الله فى مكة المكرمة ، ثم يتحدث الرافعى عن الامام الشيخ محمد عبده فى الفصل الأخير — فيقول :

« كان هذا الامام الفذ فى قوة من ربه كقوة الجبل ، يحمل ما يحمل ولايتلوى ، وفى سعة من طبعه كاستفاضة البحر : يغمر مايغمر ولايتغير ، وفى صراحة من نفسه كاستطارة النهار : يطلع مايطلع ولايخفى ، فهو رجل لكنه فكر من أفكار السماء ، وهو جسم لكنه عضلة من عضلات الطبيعة ، وهو انسان لكنه حقيقة من حقائق الكون . يصـفه الناس بأنه الرجل الحكيم الذى أوتى سر الحكمة لينبغ به ويصـفه التاريخ بأنه الحيـاة المجددة التى وهبت سر العظمة لتعمل لها ، وتصفه الحقيقة بأنه العقل المفسر الذى اتصل به طرف السر الأعلى ليتكلم عنه وليعمل له ولينبغ فيه .. » .

انها الصفات الحقيقية لهذا الرجل المؤمن والعالم الكبير .

وقد وضع الرافعى كتابه هذا فى خلال شهرين من عام ١٩٢٤ م ، وبعدها كأنما أفاء قلبه الى السكينة ، وقد فرغ من نزح الجلجلة التى كانت تدمدم فى نفسه ، وألقى ماكان فكرة يشتغل به — وكأنه دوامة — وما كانت خواطره تناجيه وتشتغل به .

ولكن الذكريات الشجية منها والمؤلمة وأشجان هذى الذكرى والحب العاصف ، كانت تطوف بخيال الرافعى من آن الى آن .. فيكتب رسائله

الفلسفية امتدادا لفلسفة الحب والجمال ولاينتهى منها الا فى عام ١٩٣١م ، ثم يضعها فى كتاب سماه (أوراق الورد) .. وقد بلغ به الكمال الأدبى والشعرى .. وهو بحق ديوان وحده فى تأريخ الأدب العربى ..

بدأ الرافعى (أوراق الورد) ببحث جامع لفنون أدب الرسائل فى الحب منذ تأريخ اللغة العربية الطويل .. وفى هذا البحث نراه يقول : « وأما بعد ، فاننا لا نعرف فى تاريخ الأدب العربى كله رسالة كتبت من هذا الطراز ، على كثرة كتاب العربية وكتبها ، وعلى ما أبدعوا من فنون الترسل ، وعلى أن هذه العربية من أوسع لغات الدنيا فيما خُصَّت به المرأة ، وما أوقعته على صفاتها ، وما أفاضته على العاطفة اليها ، وما حفلت به من ألفاظ معانيها ، حتى لو أمكن أن ترسل لغات الأمم ألفاظها تستبق فى المعانى النسائية لما كان الا للألفاظ العربية ولا أوفى على الغاية الا المعجم العربى وحده » . الى أن يزيد فى الايضاح بقوله : « على أن بلغاء الكتاب فى كل عصر قد تناولوا فى ترسلهم فن (الاخوانيات) وأجروا فيه رسائل المودة والشوق والصداقة والاستعطاف والعتاب والاعتذار والاستزارة لمجالس اللذات والأنس ، وهذه كلها من أمس المعانى بالحب وأقربها شبها به ، وقد أجاد بعضهم فى ذلك اجادة بالغة ، وأنت تجد رسائلهم منثورة فى كتب الأدب » .

***

ويضم كتاب (أوراق الورد) رسائل الرافعى الى حبيبة لبنان الصحفية ، والى غيرها من الجميلات ، ثم معظمها الى المعشوقة الأديبة (مى) وبعضا من رسائلها ورسائل مارى الأولى .. وفى ذلك يتحدث الرافعى عن نفسه فى مقدمة الكتاب بقوله : « وتاريخ الحب عند صاحب هذه الرسائل كان كله نظرة أخذت تنمو وبقيت تنمو .. وهو حب قد كان من نمائه وجماله وطهره كأنما أزهرت به روضة من الرياض لا امرأة من النساء ، وكان من مساغه وحلاوته ولذاته البريئة كأنما أثمرت به شجرة خضراء تعتصر الحلاوة فى أثمارها أصابع النور ، فأنت لا تجد فى هذه

الرسائل معانى متمثلة فى امرأة تتصبى رجلا ، ولكن معانى الحب والجمال متألهة فى انسانية تستوحى من انسانية أو توحى لها .. » .

أما عن سبب تسمية (أوراق الورد) فيروى الرافعى ذلك فى مستهل المقدمة بقوله : « هذا كتاب أوراق الورد ، فحدثنى من حدث فى سبب هذه التسمية قال : كانت معهـا ذات يوم وردة لا أدرى أيتهمـا تستثنى الأخرى ، فجعلت لها ساعة من حفـاوتها وتلمسها مرة صـدرها ومرة شفتيها ، والوردة بين ذلك كأنما تنمو فى شعاع وندى ، اذ رأيتها وقد تفتحت وتهدلت حتى لحسبت أنها قد حالت أوراقها شفاها ظمآى .. ثم تأملتها شيئا ، ثم نَحت التّى بصرها وقالت : ما أرى هذا الحب الا كورقة الورد فى حياته ورقته وعطره وجماله ، ولا أوراق الوردة الا مثـله فى انتثارها على أصابع من يمسها اذا جاوز فى مسها حدا بعينه من الرفق ، ثم فى تفتُّرها على الحاح من يتناولها اذا تابع الحاحه عليها ولو بالتنهد ، ثم فى بناء عقدها على أن تتحلل أو تذوى ان لم يمسكها مع بنائها الرقيق حذر من تكون فى يده .. لأنها على يده فن لا وردة . ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها الى عروة صاحبها فقال لها : « وضعتها رقيقة نادية فى صدرى ولكن على معان فى القلب كأشواكها .. فاستضحكت وقالت : فاذا كتبت يوما معانى الأشواك فسمها أوراق الورد ، وكذلك سماها .. » .

ان من يعرف أسلوب (مى) فانه واجد هنا ظلالا منه وروحا يرف من مشاعرها وبيانها .. وعندما نتحدث عن حب الرافعى نستعرض مايسمح به المجال لايراده من هذه الأوراق الملتهبة الناعمة فى آن .

تحت راية القرآن وعلى السفود

كانت للرافعى بداية جريئة فى النقد منذ عام ١٩٠٥م ، كما أسلفنا ، ولكن بعد أن أصدر كتابه « تاريخ آداب العرب » لاقى الاعجاب والاستحسان لدى طائفة كبيرة من الأدباء عام ١٩١١ — كان البعض منهم ينفس بسببه على الرافعى الذى أخذ يحتل مكانته الرفيعة بينهم .. وكان (الدكتور) طه حسين يومها طالبا بالجامعة ، وقرأ كتاب الرافعى هذا ، ثم راح ينقده بحجة أنه لم يفهمه ، وكرر نقده أيضا لكتابى : (حديث القمر ورسائل الأحزان) ، فلم يعد أمام الرافعى أن يبقى صامتا وأن يتجاهل ما أورده الدكتور طه حسين عن (رسائل الأحزان) على صفحات جريدة (السياسة) الأسبوعية التى أصبحت مسرح الخصومة بين الرجلين ، ثم انتقلت بنقد صارخ لاذع الى جريدة (كوكب الشرق) بعد أن عرف الرافعى وقرأ كتاب طه حسين (فى الأدب الجاهلى) الذى كان يلقيه محاضرات على الطلبة فى كلية الآداب — عندما كان يدرس فيها — وفيه آراء جريئة وشاذة تستهدف الاشادة ببعض بيان الشعر الجاهلى والشك فى بعض قصص القرآن ثم الزراية بمن يقول باعجازه (١) .. كل ذلك أمور لا يمكن أن يسكت عنها شخص كالرافعى له من قوة ايمانه وغيرته على الدين الحنيفه وعلى كتاب الله ما يحفزه لأن يرد على ما رأى من زيغ وتطرف ، وأن ينشر من نور الحق ما تستضىء به الأفهام وتستبصر به القلوب .. فهب يشرع قلمه ويفيض ببيانه يدافع عن الحصن الذى استعدى عليه الشك والوهم .. ويشرح الأستاذ العريان هذه العوامل كما خبرها

---

(١) ملخص لما ورد فى كتاب « حياة الرافعى » من حديث الأستاذ العريان فى فصل « تحت راية القرآن » .

عن كتب فيقول : « لقد كان شيئا منكرا أن يزعم كاتب أن له الحق فى أن يتجرد من دينه ليحقق مسألة من مسائل العلم ، أو أن يناقش رأيا من الرأى فى الأدب ، أو يمحص رواية من الرواية فى التاريخ ، لم يكن أحد من كتاب العربية ليترخص لنفسه فى ذلك فيجعل حقيقة من حقائق الدين فى موضع الشك ، أو نصا من نصوص القرآن فى موضع التكذيب ، ولكن الدكتور طه قد فعلها ، ومنح نفسه الحق فى أن يقول قالة فى القرآن وفى الاسلام وتأريخ الاسلام ، وقرأ الرافعى ما قاله طه ، فغضب غضبة للدين والقرآن وتاريخ المسلمين ، ونقل المعركة من ميدان الى ميدان .. وكان طه فى أول أمره عند الرافعى كاتبا يزعم أن له مذهبا جديدا فى الأدب ، فعاد مبتدعا مضلاً له مذهب جديد فى الدين والقرآن ، فكما ترى البدوى الثائر لعرضه أن ينتهك ، كان الرافعى يومئذ ، فمضى يستعدى الحكومة والقانون وعلماء الدين أن يأخذوا على يده ويمنعوه أن تشيع بدعته فى طلاب الجامعة ، وترادفت مقالاته ثائرة مهتاجة تفور بالغيظ وبالحمية الدينية وبالعصبية للاسلام والعرب وكأن فيها معنى الدم .. » .

بحملة الرافعى هذه — فى مقالاته اللاهبة — اشتدت الخصومة بينه وبين طه حسين حتى انها خلقت أزمة بين حزبى الأمة والأحرار الدستوريين — (الحاكم) يوم ذاك — والذى ينتمى اليه طه حسين ، بينما الأول هو حزب الزعيم سعد زغلول ، ويفسر ذلك قول الأستاذ العريان أيضا : « لا أزعم أن اهتمام الناس جميعا فى مصر بهذه المقالات ، لأنهم جميعا قد صار لهم فى شئون الأدب رأى ، أولهم فى الذود عن الاسلام حمية ، لا .. ولكنه نوع من التعصب السياسى جاء اتفاقا ومصادفة فى الوقت نفسه ليكون تأييدا لقول الله وانتصارا لكلمته ، على أن هذه المقالات باقبال الناس عليها — لسبب أدبى أو لسبب سياسى — قد بعثت روحا دينيا كانت راقدة ، وأذكت حمية كانت خامدة ، وألفت قلوبا الى قلوب كانت متنافرة ، ونبهت طوائف من عباد الله كانت أشتاتا لتعمل للذود عن دين الله .. » .

وهكذا انتصر الحق ، وفاز الرافعى برضاء الله والناس ، وكان من نتيجة القضية المرفوعة ضد كتاب « فى الشعر الجاهلى » أن سحبت جميع نسخه من الأسواق واحتجزت وقتا ثم أعيدت .. على أن هـذا الكتاب نفسه أجرى عليه مؤلفه « الدكتور العميد » بعض التعديلات اللازمة ، ثم نشره فيما بعد باسم «الشعر الجاهلى» — وهو المتداول المعروف اليوم .

***

جمع الرافعى مقالاته النقدية من عام ١٩٠٨ الى عام ١٩٢٦ م وضمها فى كتاب سماه « تحت راية القرآن » ، لأن معظم هذا النقد يعتبر حقيقة جهاد لله فى نصرة دينه وكتابه الكريم ، وفى مقدمة الكتاب يقول الرافعى : « أما بعد فانى قد نظرت فاذا كل ما كنت أريد أن أقوله فى هذه الكلمة قد كتبه فى هذه المقالات ، فهى لا تدع مسألة ولا تترك شبهة ولا تزال تأخذ بيد القارىء فتضعها على غلطات أصحابنا المجددين ، بل المبددين واحدة بعد واحدة وشيئا بعد شىء ، فهو منها فى برهان لائح من حيث بدأ الى حيث ينتهى ، كالنجم : لا يزال بعين منه أين مشى وكيف تلفت . وما رأيت فئة يأكل الدليل الواحد أدلتها جميعـا كهؤلاء المجـددين فى العربية » .

ذلك شأن الرافعى فى كتابه «تحت راية القرآن» .. أما كتابه النقدى الآخر « على السفود » فله قصة وله شأن غير سابقه .

بدأ الرافعى مقالاته تحت هذا العنوان ينقد قصائد الشاعر عبد الله عفيفى الذى كان يومها محررا فى ديوان الملك فؤاد ، وكان الرافعى هو شاعر القصر بين عامى ١٩٢٦ — ١٩٣٠ م وليس له من مكافأة أو أجر سوى اللقب وتذكرة مجانية على (خطوط السكة الحديد) من الدرجة الأولى ، يتنقل بها أنى شاء فى القطر المصرى ، وابتعث ابنه محمد الى فرنسا يدرس الطب بجامعة ليون ، وعلى نفقة الملك طبع كتابه « اعجاز القرآن » ، وأصبح له دالة واعتدادا بنفسه أكثر بين زملائه فى وظيفته الحكومية .

وعندما مات محمد نجيب (باشا) ناظر الخاصة الملكية الذى كان واسطة الرافعى فى لقب (شـاعر الملك) ، وتعين (الابراشى باشا) ناظرا جديدا ، حدث من كبرياء الرافعى ما جعله ينزل الى معركة أدبية ويسحب منه اللقب ، وهو هنا يروى بنفســه ما كان منه ومن الابراشى فى مبدأ الأمر :

قال الرافعى فى حديثه للاستاذ العريان : « كنت فى عهد نجيب باشا أذهب الى القصر فيلقانى بوجه طلق ويحتفى بى ويبسط لى وجهه ومجلسه ويثلج صدرى بما يروى لى من عطف المليك ورضاه . فما أغادر القصر الا وأنا أشعر كأن نفسى تزداد عمقا وتمتد طولا وتبســط سعة . ثم جاء الإبراشى فلم تدعنى داعية الى لقائه حتى كان يوم وجدتنى فيه منطلقا الى هناك لأسأله فى أمر من الأمور .. وذهب اليه الساعى بالبطاقة ودعانى الى الانتظار ، فجلســت وما أظـن الا أنها دقائق ثم أدعى اليه .. وطال بى الانتظار ، ومضت ساعة ، وساعة وساعة ، وأنا فى هذا الانتظار بين الصبر والرجاء وحولى من ذوى الحاجات وجـوه عليها طوابع ليس على وجهى منها ، ونظرت اليهم والى نفسى فضجرت ، فعدت أستأذن عليه وقد جال بنفسى أنه نسى مكانى ، فعاد الىَّ حاجبه يقول : الباشا يعتذر اليك اليوم ويسألك ان تمر به غدا فى الساعة كذا .. وآذانى ذلك ونال منى ولكنى اعتذرت عنه ، فلما كان الغد جاءنى النبأ ينعى الىَّ زين الشباب المرحوم أمين الرافعى بك ، فآدنى الهم وثقل علىَّ وضـاقت نفسى بما فيهـا ، وتوزعتنى الوساوس والآلام وما نسيت وأنا أمشى فى جنازة الفقيد العظيم أن على موعدا بعد سـاعات ، فما هيل عليه التراب حتى كنت فى طريقى عدوا الى القصر وفاء بالوعد الذى اتّعدت ، وجعلت من وراء ظهـرى ما على من واجب المجاملة لمن جاءوا يعزوننى فى أخى وابن عمى وصاحب الحقوق علىَّ ، لقد كان الذى مات زعيما من زعماء الوطنية له مقداره ، ولكنى جعلت الوفاء بالوعد فوق ما علىَّ من الواجب للزعيم الذى مات ، وانه لأخى وان فى أعراقه من دمى وفى أعراقى .. ووقفت بالباب أنتظر ان يؤذن لى فأدخل وطال بى الانتظار كذلك وان فى دمى جمرات تتلهب ، ومضت ثلاث ساعات وأنا فى مجلسى ذلك أطالع وجود الداخلين والخارجين

فى غرفة الباشـا ولا يؤذن لى .. وهاجـت كبريائى وثارت حماقتى .. لا أكذبك يابنى ان فىّ لحماقة .. ان صرامة عمر بن الخطاب قد انحدرت الى فى أصلاب أجدادى من النسـب البعيد ، ولـكن صرامة عمر حين انحدرت الىّ صارت حماقة ، فهذه الحماقة عندى يابنى هى تلك البقية من صرامة عمر بعد ما تخطـت الى هذا الزمن البعيد فى تاريخ الأجيال .. ولما بلغ بى الحنق مبلغه نهضـت وفى يدى عصاى ، فتقدمـت الى الباب خطوة ، فدفعته بالعصا وأنا مغيظ محنق ، فاذا أنا أمـام الابراشى باشا وجها لوجه والى جانبه رجل أوربى يحدثه ، فلم أعبأ ولم أكترث ولم أذكر وقتئذ أين موضعى وموضعه ، فقلت ماكنت أريد أن أقول وانتصف لنفسى وثأرت لكبريائى . وأحسبنى قد خرجت يومئذ عن حدود الأدب اللائق فى الحديث معه ، ولـكنى لم ألق بالا الى شىء من ذلك . وما كان فى نفسى الا أننى قد قلت ما ينبغى أن أقول لأحفظ كـرامتى وأصـون نفسى ، ولا علىّ بعد ذلك من غضبه أو رضاه ، ولكن .. ولكنه لم يغضب ولم يعتب ، بل اعتذر الىّ وألح فى الاعتذار ، وصدقته حين ابتسم » .

وكما يروى الاستاذ العريان فان الابراشى قد اسَّرها فى نفسه فتعمد فى أول موسم عام ١٩٣٠م أن ينشر قصيدتى الرافعى وعبـد الله عفيفى — عن الملك — متجاورتين فى مكان واحد من الجريدة دون تفرقة بين الشاعرين ، وما كان هذا التصرف ليرضى الرافعى ، وقد اعتبره اهانة له بمساواة شعره بمنافس جديد (عند صاحب التاج) ..

وشرع الرافعى يتناول بالنقد بعض قصائد عبد الله عفيفى فى مديح الملك ، وينشر ثلاثة مقالات تحت عنوان (على السفود) بمجلة (العصور) دون أن يوقع اسمه عليها تحاشيا من معرفة أنه الناقد الجرىء ..

وما كان ليخفى عن الناس أسلوبه ، وعرف الديوان الملكى خبره ، فانفذ اليه من يقول له : « كيف تأذن لنفسـك أن تقول ما قلت فى شاعر من شعراء الملك وأن تكتب عنه بهذا الأسلوب لتصرف الشعراء المخلصين عن ساحة الملك ؟ » .. ولم يكن من الرافعى الا أن يعتذر ثم يصمت ، وقد انقطعت صلته الخاصة بالقصر .

وما هى الا سنتان حتى تبدأ المعركة بينه وبين الاستاذ العقاد ، وماكان بينهما الا المودة والتقدير قبل أن تصدر الطبعة الثانية (لاعجاز القرآن) على نفقة الملك .. ويروى الرافعى قصة بدء خصامه مع العقاد فيما أدلى به من حديث للاستاذ العريان — فقال : « سعيت لدار المقتطف لامر ، فوافقت العقاد هناك ، ولكنه لقينى بوجه غير الذى كان يلقانى به فاعتذرت من ذلك الى نفسى بما ألهمتنى نفسى ، وجلسنا نتحدث ، وسألته الرأى فى اعجاز القرآن ، فكأنما ألقيت حجرا فى ماء آسن.. فمضى يتحدث فى حماسة وغضب وانفعال كأن ثأرا بينه وبين اعجاز القرآن ، ولو كان طعنه وتجريحه فى الكتاب نفسه اهان علىّ ، ولكن حديثه عن الكتاب جره الى حديث آخر عن القرآن نفسه وعن اعجازه ، وايمانه بهذا الاعجاز .. أصدقك القول يا بنى : لقد ثارت نفسى ساعتئذ ثورة عنيفة ، فكدت أفعل شيئا ، ان القرآن لأكرم وأعز .. ولكنى آثرت الاناة .. وأخذت أناقشه الرأى وأبادله الحوار فى هدوء وان فى صدرى لمرجلا يتلهب ، اذ كنت أخادع نفسى فأزعم لها أنه لم يتخذ لنفسه هذا الأسلوب فى الهجوم على فكرة اعجاز القرآن ، الا لأنه حريص على أن يعرف ما لا يعرف وعلى أن يقتنع بما لم يكن مقتنعا به ، فأخذت معه فى الحديث على هدوئى وثورة أعصابى ، ولم أفهم الا من بعد ما كان يدعوه الى ما ذهب اليه .. لقد كان العقاد كاتبا من أكبر كتاب الوفد ينافح عنه ويدعو اليه بقلمه ولسانه عشر سنين ، وانه ليرى له عند (سعد) منزلة لا يراها لكاتب من الكتاب أو أديب من الادباء ، وان له على سعد حقا ، ولكن سعدا مع ذلك لم يكتب له عن كتاب من كتبه : « كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم » ، وكتبها للرافعى وليس عليه حق مما عليه للعقاد .. من هنا يا بنى كانت ثورته ، كانت ثورة الغيرة .. لا ثورة الأديب الناقد الذى لم يقنع بما كتب الكتاب عن اعجاز القرآن فهو يلتمس المعرفة والاقتناع . وعرفت ذلك من بعد فما بدا على ما فى نفسى من الانفعال ، ومضيت معه فى الحديث فى وجه جديد . قلت : أنت تجحد فضل كتابى ، فهل تراك أحسن رأيا من سعد ؟ وفهم ما أعنيه فقال : ما سعد ؟ وما رأى سعد ؟ وطويت الورقة التى كان يكتب فيها حديثه .

فقبضت عليها يدى ثم قلت : أفتراك تصرح برأيك هذا فى سعد لقرائك وأنت تأكل الخبز فى مدحه والتعلق بذكراه ..؟ قال : فاكتب الىَّ هذا السؤال فى صحيفة من الصحف تقرأ جوابى كما عرفته الآن . وابتسمت لقوله ذاك وأجبته : ياسيدى ، ان الرافعى ليس من الحماقة بحيث يسأل هذا السؤال فى صحيفة من الصحف فتنشر السؤال ولا ترد عليه ، فيكون فى سؤالى وفى صمتك تهمة لى ، وتظل أنت عند قرائك حازما أريبا بريئا من التهمة مخلصا لذكرى سعد . وما قلت ذاك ــ وان ورقته فى يدى أشد عليها بأناملى — حتى تقبض وجهه ، وتقلصت عضلاته ، ثم قال فى غيظ وحنق « ومع ذلك فمالك أنت وسعد ؟ ان سعدا لم يكتب هذا الخطاب ، ولكنك أنت كاتبه ومزوره ، ثم نحلته اياه لتصدر به كتابك فيروج عند الشعب .. » .

ذلك مما رواه الرافعى فيما حدث بينه وبين العقاد ، ويضيف الاستاذ سعيد العريان معرفا عن ذلك ، فيقول : « وقد أطلعنى الرافعى على ورقات قال ان العقاد كان يحدثه كتابة فيها ، وفيها عبارات تبرهن على صـدق الرافعى فى روايته ، كما أشـار الرافعى فى كتابه « على السـفود » الى طرف من هذه المحاورة التى يحتفظ بها برهانا على ما يصف به العقاد » .

وانطلقت الشرارة يشتعل ما حولها ، وهبَّ الرافعى يكتب مقالاته بحماس شديد فى مجلة « العصور » وفى غيرها عند نقده لديوان العقاد « وحى الاربعين » يكتبها بسخـرية لاذعة ونقد قاس يحلل ويكشف فى شعر العقاد وأدبه ، وكان العقاد يرد على نقد الرافعى بنفس الطريقة اللاذعة الساخرة .. وقد جمعت « مجلة العصور » مقالات الرافعى وأصدرتها فى كتاب « على السفود » قدم له الاستاذ اسماعيل مظهر بكلمة قال فى بعض سطورها :

« أردنا بنشر السفود أن نرضى من أنفسنا نزعتها الى تحرر النقد من عبادة الأشخاص : ذلك الداء المستعصى الذى كان سببا فى تأخر الشرق من لحاق الامم الأخرى . ونقدم بهذه المقدمة تعريفا لما قصدناه من اذاعة

هذه المقالات الانتقادية التى اعتقد بأنه لم ينسج على منـــوالها فى الأدب حتى الآن » .

دام ذلك التنافس والخصومة بين الرافعى والعقاد الى أن توفى الأول الى رحمة الله ، ولم يتوصل الاستاذ أحمد حسن الزيات « صاحب مجلة الرســالة » — للجمع واصـــلاح ذات البين بينهما ، وكان يسعى جاهدا لذلك ، كما أنه ماكان لينشر لهما معا فى عدد من « الرسالة » .. لأن كلا منهما يرى الأحقية فى أن يتقدم على الآخر .. ولعله لو عمر الرافعى طويلا لتجددت أســباب المودة بينه وبين الاستاذ عباس محمود العقاد ، ولأقر كلاهما للآخر بمكانته الأدبية وعظمته الفكرية البناءة .

وحي القلم

وهذا الكتاب الضخم الذى يزيد على (١٣٠٠) صفحة من القطع الكبير .. مقالات شتى .. وبحوث مختلفة كتبت بأسلوب بليغ . هو الأسلوب الأدبى المميز لكتابات الرافعي .. ببلاغته وروعته .. ببيانه وفلسفته .. والكتاب فى أجزاء ثلاثة ، يقع الأول فى ٤٠٠ صفحة ، والثانى فى ٤١٢ صفحة ، والثالث فى ٤٩٠ صفحة .. وتحتوى هذه الأجزاء — غير مؤلفاته السابقة — على نحو من ١٦٠ فصلا منوعا من مقالات فى الأدب والدين والاجتماع ، ومن قصص ودراسات ، ومن بحوث وآراء وأفكار.. كتب فيها عن ذكريات وأعياد دينية ، وعن أدباء ودواوين لشعراء ، وعن أحداث يلمسها أو يكتب له عنها ، ومن أمور الزواج وحياة الأسر ، وعن قضايا الحب وآلام الشعب ، وعن الأخلاق والانسانية والسياسة ، وعن مشاعره هو تجاه الحياة والاحياء كفنان وكفيلسوف ، يرقب عن كثب حوادث الناس ويرى أوضاعهم فيهتم بشئونهم ويستوحى خواطره من أحوالهم ومما يجرى بينهم .

ولكل فصل أو موضوع يكتبه حادثة تبعث عليه أو سبب يدفعه ليقول برأى أو ينصح بفكرة أو بحديث من مواد أدبه ورسالته التى يعيشها بدمه .. وينبوع بيانه الذى لا ينفد .. وهذا سر ايمانه وقوة تعلقه بربه وبكتابه الحكيم وادمانه على الخوض فى كتب البلاغة والأدب حتى امتلأ وفاض بفنون المعرفة وألوان البحوث الهادفة .

ومعظم انتاج وحى القلم وليد أيامه بين عامى ١٩٣٠ و ١٩٣٧ م « سنة وفاة الرافعى » ، وكانت تحتفل بهذا الانتاج الأدبى مجلات : الرسالة ، والزهراء ، والهلال ، والمقتطف ، وجريدتى المقطم ، والاهرام

وغيرهما .. وقد أصبح يقرأ للرافعي الكثيرون ، ومنهم كبار الادباء والجيل الناشيء والشباب الذين كانوا يستزيدون الرافعي من كتاباته حول الأسرة والعلاقات الزوجية والمهور والتقاليد الهدامـة التى كانت تفرضها بعض الاسر أو العادات الافرنجية الدخيلة التى تأخذ بها المرأة الجاهلة والمجتمع الحائر يومها ..

ومن الفصول التى عالج فيها الرافعي مثل هذه الأوضاع قصصه :

« قصة زواج ، سمو الحب ، ابنته الصغيرة ، ذيل القصة وفلسفة المال ، تربية لؤلؤية ، الطائشة ، رؤيا فى السماء » وهذه القصة الأخيرة ترجمها الى الفرنسية الاستاذ فليـكس فارس الذى أصبح بعدها صديقا مخلصا للرافعي .

ونأتى هنا من كل جزء من أجزاء « وحى القلم » الثلاثة : بشذرات من مقال أو بحث -- اتماما للفائدة ..

فى الجزء الأول قصيدتان نثريتان ترجم الرافعي احداهما بلسـان الشيطان باسم « لحوم البحر » والأخرى بلسان الملك باسم « احذرى ».. وقد استوحاهما من المصيف على بلاج الاسـكندرية حيث تسقط المعانى الانسانية والخليقة بتجـرد الناس — اناثا وذكورا — من ستار الجسد وكأنهم يؤكدون الوجودية الحمراء بتحللها ومجونها ..

يقول الرافعي فى تمهيده للقصيدة الأولى : « لكأنما والله قد تمدد على سيف البحر فى الاسكندرية شيطان مارد من شياطين ما بين الرجل والمرأة ، يخدع الناس عن جهنم بتبريد معانيها .. وقد امتلأ به الزمـان والمكان . فهو يرعش ذلك الرمـل بذلك الهواء رعشـة أعصاب حية ، ويرسل فى الجو نفخات من جـرأة الخمر فى شـاربها ثار فعربد ، ويطلع الشمس للأعين فى منظر حسناء عريانة ألقت ثيابها وحياءها معا ، ويرخى الليل ليغطى به المخازى التى خجل النهار أن تكون فيه » .

يقول الرافعي فى مبدأ هذه القصيدة :

« قال الشـيطان : ألا ان البيهمية والعقليـة فى هذا الانسان ، مجموعهما شيطانية .. ألا وانه ما من شيء جميل أو عظيم الا وفيه معنى

السخرية به ، هنا تتعرى المرأة من ثوبها فتتعرى من فضيلتها .. هنا يخلع الرجل ثوبه ثم يعـود اليه فيلبس فيه الأدب الذى خلعه .. رؤية الرجل لحم المرأة المحـرمة نظر بالعين والعاطفة : يرمى ببصره الجائع كما ينظر الصقر الى لحم الصيد . ونظر المرأة لحم الرجل رؤية فكر فقط .. تحول بصرها أو تخفضه وهى من قلبها تنظر .. يالحوم البحر سلخك من ثيابك جزار .. » — ويختتم الرافعى هذه القصيدة بقوله :

« هنا على رغم الآداب ، مملكة للصيف والقيظ ، سـلطانها جسم المؤنث العارى . أجسام تعرض مفاتنها عرض البضائع ، فالشاطىء حانوت للزواج . وأجسام تعرض أوضاعها كأنها فى غرفة نومها لا فى شـاطىء .. وأجسام جالسة لغيرها ، تحيط بها معانيها ملتمسـة معانيه ، فالشاطىء سوق للرقيق .. وأجسام خفرة جالسة للشمس والهواء ، فالشاطىء كدار الكفر لمن أكره .

وأجسام عليلة تقتحمها الأعين فتزدريهـا لأنها جعلـت الشاطىء مستشفى ..

وأجسام خليعة أضـافت « من استانلى » وأخواتها — الى منارة الاسـكندرية ومكتبة الاسكندرية — مزبلة الاسكندرية .. كان جدال المسلمين فى السفور فأصبح اليوم فى العرى .. فاذا تطور فماذا بقى من تقليد أوروبا الا الجدال فى شرعية جمع المرأة بين الزوج وشبه الزوج ؟ ».

والقصيدة الثانية « احـذرى » يقول الرافعى فيها مخاطبا المـرأة الشرقية بلسان الملك :

احذرى خجل الأوربية المترجلة من الاقرار بأنوثتها .

ان خجل الانثى من أنها انثى يجعل فضيلتها تخجل منها .

انه يسقط حياءها ويكسو معانيها رجولة غير طبيعية .

ان هذه الانثى المترجلة تنظـر الى الرجل نظـرة رجل الى أنثى .. والمرأة تعلو بالزواج درجة انسـانية ، ولكن هذه المكذوبة تنحط درجة انسانية بالزواج ..

أيتها الشرقية احذرى » .

الى أن يقول فى ختامها :

« احذرى السقوط ، ان سقوط المرأة لهوله وشدته ثلاث مصائب فى مصيبة :

سقوطها هى وسقوط من أوجدوها وسقوط من توجدهم .

نوائب الاسرة كلها قد يسترها البيت الا عار المرأة .

فيد العار تقلب الحيطان كما تقلب اليد الثوب فتجعل ما لا يرى هو ما يرى .

والعار حكم ينفذه المجتمع كله ، فهو نفى من الاحترام الانسانى .

لو كان العار فى بئر عميقة لقلبها الشيطان مئذنة ووقف يؤذن عليها .

يفرح اللعين بفضيحة المرأة خاصة ، كما يفرح أب غنى بمولود جديد فى بيته ..

اللص والقاتل والسكير والفاسق — كل هؤلاء على ظاهر الانسانية كالحر والبرد .

أما المرأة حين تسقط ، فهذه من تحت الانسانية هى الزلزلة .

ليس أفظع من الزلزلة المرتجة تشق الأرض ، الا عار المرأة حيث يشق الأسرة .. أيتها الشرقية احذرى احذرى .. » .

***

وعندما نأخذ الجزء الثانى من « وحى القلم » ، وأنا فى حيرتى لاختيار احدى روائعه ، تقف عند مقالة كتبها الرافعى فى الحديث مع نفسه والافصاح عن سرائره — سماها « قلت لنفسى وقالت لى » فهلا تعرفنا الى هذه الأقوال الصريحة التى تبين الكثير عن أديبنا الكبير فى نظرته للحياة وفى آرائه ومعالجته لفنه ؟.. انه يبدأ مقالته بقوله :

« قلت لنفسي : ويحك يا نفس . مالى أتحامل عليك فاذا وفيت بما في وسعك أردت منك ما فوقه وكلفتك أن تسعى ، فلا أزال أعنتك من بعد كمال فيما هو أكمل منه ، وبعد الحسن فيما هو الأحسن ، وما أنفك أجهدك كلما راجعك النشاط ، وأضنيك كلما ثابت القوة ، فان تكن لك هموم فأنا أكبرها ، واذا ساورتك الأحزان فأكثرها مما أجلب عليك . أنت يا نفس سائرة على النهج ، وأنا أعتسف بك أريد الطيران لا المسير ، وأبتغي عمل الاعمار في عمر ، وأستحثك من كل هجعة راحة بفجر تعب جديد ، وكأني لك زمن يماد بعضه بعضا ، فما يبرح ينبثق عليك من ظلام بنور ومن نور بظلام ليهيىء لك القوة التى تمتد بك فى التاريخ من بعد ، فتذهبين حين تذهبين ويعيش قلبك فى العالم ساريا بكلمات أفراحه وأحزانه . وقالت لى النفس : أما أنا فانى معك دأبا كالحبيبة الوفية لمن تحبه : ترى خضوعها أحيانا هو أحسن المقاومة ، وأما أنت فاذا لم تكن تتعب ولا تزال تتعب فكيف تريني انك تتقدم ولا تزال تتقدم . ليس دنياك يا صاحبى ما تجده من غيرك بل ما توجده بنفسك فان لم تزد شيئا على الدنيا كنت أنت زائدا على الدنيا ، وان لم تدعها أحسن مما وجدتها فقد وجدتها وما وجدتك ، وفى نفسك أول حدود دنياك وآخر حدودها ، وقد تكون دنيا بعض الناس حانوتا صغيرا ودنيا الآخر كالقرية المملة ودنيا بعضهم كالمدينة الكبيرة ، أما دنيا العظيم فقارة بأكملها . واذا انفرد امتد فى الدنيا فكان هو الدنيا .؟ والقوة يا صاحبى تغتذى بالتعب والمعاناة ، فما عانيته اليوم حركة من جسمك ، ألفيته غدا فى جسمك قوة من قوى اللحم والدم ، وساعة الراحة بعد أيام من التعب ، هى فى لذاتها كأيام من الراحة بعد تعب ساعة .. » .

الى أن يقول فى أواخر هذه المقالة :

« قلت لنفسي : فهل ينبغي لى أن أحرق دمى لأنى أفكر ، وهل أظل دائما بهذا التفكير كالذى ينظر فى وجه حسناء بمنظار مكبر : لا يريه ذلك الوجه المعشوق الا ثقوبا وتخربا كأنه خشبة نزعت منها مسامير غليظة .. فلا يجد المسكين هذه الحقيقة الا ليفقد ذلك الجمال ؟ وهل بد من الشبه

بين بعض الناس وبين ما ارتعد له من عمل يحيا به ، فلا يكون الحوذى حوذيا الا لشبه بين نفسه وبين الخيل والبغال والحمير ..؟

وقالت لى النفس : ان فأس الحطاب لا تكون من أداة الطبيب ، فخذ لكل شيء أداته ، وكن جاهلا أحيانا ، ولكن مثل الجهل الذى يمنع لوجه الطفل بشاشته الدائمة ، فهذا الجهل هو أكبر علم الشعور الدقيق المرهف على هذه الأرض ، بين هذه الحقائق .. ان الروح الكبيرة هى فى حقيقتها الطفل الملائكى .. انظر بالروح الشاعرة تر الكون كله فى سمائه وأرضه انسجاما واحدا ليس فيه الا الجمال والسحر وفتنة الطرب ، وانظر بالعقل العالم فلن ترى فى الكون كله الا مواد علم الطبيعة والكيمياء .. ومدى الروح جمال الكون كله ، ومدى العقل قطعة من حجر أو فلذة من معدن وما أشبهها .. أجهل جهلك يا صاحبى ففى كل حسن غزل بشرط ألا تكون العاشق الطامع ، والا أصبت فى كل حسن هما ومشغلة .. » .

انها نظرة الفنان الشاعر الذى يرى فى الروح حياة الانطلاق والتأمل والجمال والالهام .. حياة الفكرة الرحبة والخيـالات الساحرة والأمانى الرفافة .. وهذه هى أجواء الأديب من حيث يبدأ الى حيث ينتهى .

***

وأخيرا هذا الجزء الثالث من وحى القلم .. يبدؤه الرافعى ببحث طويل عن (الجمال الفنى فى البلاغة النبوية) ودعاه (السمو الروحى الأعظم) .. كتب هذا البحث بناء على طلب من «جمعية الهداية الاسلامية» بالعراق عام ١٣٥٢ هـ لذكرى المولد النبوى الخالدة .. يقول الرافعى فى مطلع البحث :

« لما أردت أن أكتب هذا الفصـل وهممت به ، عرضت لى مسألة نظرت فيها أطلب جوابها ، ثم قدرت أن يكون أبلغ فلاسفة البيان فى أوربا لعهدنا هذا رجلا يحسن العربية المبينة ، وقد بلغ فيها مبلغ أئمتها علمـا وذوقا ، ودرس تاريخ النبى صلى الله عليه وسلم دروس الروح لأعمال الروح، وتفقه فى شريعته فقه الحكمة لأسرار الحكمة ، واستوعب أحاديثه

واعتبرها بفن النقد البيانى الذى يبحث فى خصائص الكلام عن خصائص النفس ، وتمثلت أنى لقيت هذا الرجل فسألته : ما هو الجمال الفنى عندك فى بلاغة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وماذا تستخرج لك فلسفة البيان منه ؟ وما سره الذى يجتمع فيه ؟

ولم يكد يخطر لى ذلك حتى انكشف الخاطر عن وجه آخر ، وذلك أن يكون معنى هذا السؤال بعينه قد وقع فى شىء من حديث النفس لأبلغ أولئك العرب الذين رأوا النبى صلى الله عليه وسلم ، وآمنوا به واتبعوا النور الذى أنزل معه ، وقد صحبته فطالت صحبته ، لا يفوته من كلامه فى الملأ شىء ، وخالطه حتى كان له فى الاحاطة بأحوال نفسه كبعض التاريخ ، فتدبر ما عسى أن يكون سر الجمال فى بلاغته صلى الله عليه وسلم ، وما مرجعه الذى يرد اليه ؟

لو دار السؤال دورتيه فى هذه السليقة العربية المحكمة التى رجعت أن تكون فلسفة تشعر وتحس ، وفى تلك الفلسفة البيانية الملهمة التى بلغت أن تكون سليقة تدرس وتفكر — لما خلص من كلتيهما الا برأى واحد تلتقى عليه حقيقة البيان من طرفيها : وهو أن ذلك الجمال الفنى فى بلاغته صلى الله عليه وسلم انما هو أثر على الكلام من روحه النبوية الجديدة على الدنيا وتاريخها . وبعد ، فاننى فى هذه الصفحات لا أصنع شيئا غير تفصيل هذا الجواب وشرحه ، باستخراج معانيه واستنباط أدلته ، والكشف عن أسراره وحقائقه ، ولقد درست كلامه صلى الله عليه وسلم ، وقضيت فى ذلك أياما أتتبع السر الذى وقع فى التاريخ القفر المجدب فأخصب به وأنبت للدنيا أزهاره الانسانية الجميلة ، فكانوا ناسا ان عبتهم بشىء لم تعبهم الا أنهم دون الملائكة ، وكانوا ناسا دارت الكرة الأرضية فى عهدهم ثلاث دورات : واحدة حول الشمس ، وثانية حول نفسها ، وثالثة حول أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم .. ثم تركت الكلام النبوى يتكلم فى نفسى ويلهمنى ما أفصح به عنه ، فلكأنى به يقول فى صفة نفسه : انى أصنع أمة لها تأريخ الأرض من بعد ، فأنا أقبل من هنا وهناك ،

وأذهب هناك وهنا ، مع القلوب والأنفس والحقائق ، لا مع الكلام والناس والوقت .. »

وبهذا البيان السهل الممتنع فى شرح أسرار الكلام النبوى وروائعه يستمر الرافعى فى بحثه الى أن يختتمه قائلا :

« ولما كان النبى صلى الله عليه وسلم متساوقا مع الحقيقة ، متصلا بها محدودا بربه لا بنفسه ، كان لذلك خارجا من حاضر ما نحن فيه ، ممتدا بمعناه الانسانى الكامل الى المستقبل الذى وراء الحياة ، فما نحصره نحن بطبيعتنا فى بعض الأسماء لا يلتفت هو اليه بطبيعته ، ومن ذلك أوصاف الغنى والحلية والنعيم والمتاع والجمال والمطعم والمشرب ، وماداخل الطبيعة من مثل معانيها ، وما جرى هذا المجرى ، فهذا كله يراه الناس من جهة الحاجة اليه والمطمع فيه ، اذا كان ضعف ادراكهم وضيق وعيهم مما يبدع أكاذيب الخيال ، فتجىء من ذلك أوصافهم وفنون أوصافهم ، أما النبى صلى الله عليه وسلم فيرى ذلك من ناحية الغنى عنه والسمو عليه ، اذ كان لا ينظر بطبيعة روحه العظيمة الا على النظرين وأطهرهما ، فآخر ادراكنا للحقيقة والطبيعة أول ادراكه هو للطبيعة والحقيقة ، وما تعجز عنه الانسانية تبدأ منه النبوة .. وعلى هذا فان أقوى البراهين على كماله صلى الله عليه وسلم ونبوته واتساع روحه ونفاذ ادراكه لحقائق الكون — انه لم يتبسط فى تلك الفنون كما يصنع البلغاء ، ولم يأخذ مأخذهم فيها ، اذ كانت كلها من أكاذيب القلب والفكر والعين .. بحسب الدنيا من جمال فنه صلى الله عليه وسلم وما يضيف الى الحياة عظمة الأشياء العظيمة ، ويدفع الانسانية فى طريقها الواحد الذى هو بين الأب والأم ، طريق الأخ الى أخيه ، يكون فى الدنيا بين الرجلين كما هو فى الدم بين القلبين رحمة ومودة ، وبحسبنا من جمال هذا الفن ما يهدى الانسان الى حقيقة نفسه ، فيقره فى الحقيقة من وجوده الانسانى ويجعل الفضائل كلها تربية للقلب ، يكبر بها ثم يكبر ، ثم لا يزال يكبر حتى يتسع لحقيقة هذه الكلمة الكبرى : الله أكبر .. » .

وفى هذا الجزء أيضا معظم مقالات الرافعى فى الأدب وما كتبه عن بعض أدباء عصره ومؤلفاتهم كشوقى وحافظ ويعقوب صروف والخضرى ، وعلى محمود طه عن ديوانه (الملاح التائه) ، وتوفيق الحكيم عن كتابه « محمــد » ، ومحمود أبو الوفا عن ديوانه « الأعشاب » وغيرهم من الأدباء والمفكرين القدماء والمحدثين .

كتب أخرى

وللرافعى مؤلفات أخرى ولكنها فى كتيبات ، أصدرها بعض الذين يريدون الكسب من طباعتها .. وأكبرها كتاب « النشيد الوطنى المصرى » : الى العلا — وقد ضم هذا الكتاب خبر لجنة الأغانى وما كتبه بعض الأدباء فى تقريظ النشيد ، والمقالات النقدية التى كتبها الرافعى عن اللجنة .. ويقع الكتاب فى ٩٦ صفحة من القطع المتوسط .

أما الكتيب الثانى فأصدرته صحيفة الحال فى ١٦ صفحة من القطع الصغير وبه قصيدة الرافعى الاجتماعية « التبرج » مع مقدمة لها بقلم صاحب جريدة الحال عن المرأة ومكانتها فى الحياة .

وفى مطلع هذه القصيدة يقول الرافعى :

« دلالك فى التبرج من ضلالك ... وما عاب الدلال سوى دلالك
لمن تتبرجين وذى سبيل ... وما هى أفق شمسك أو هلالك
أما تخشين أنك فى طريق ... يرف به الحرام على حلالك
وأن ذئاب هذا الحسن تمشى ... مسعرة اللحاظ على غزالك »

الى أن يقول فى شرح أكثر :

« كأنك لست بنت أب والا ... فما لأبيك لم يخطر ببالك
الأخت أنت أم زوج وأم ... فما منهن واحدة كذلك
وحالك للأبوة كل عار ... وعار للبنوة كل حالك
(برزت) لقتل ذلك أم لهذا ... فما هذا وذلك من رجالك »

انه يصف الوضع الشائن الذى تنحدر اليه المرأة بسفورها المحرم وعريها أمام أطماع الشباب ولهب العواطف ، حتى تصبح مزبلة المتاع ، ولن يستطيع مجرجروها أن يعيدوا لها كرامة أنوثتها بعد أن يتحطم زجاجها الرقيق .. ترى ما الذى أفادته المرأة من التقليد الغربى الماجن ؟.. وقد غرروا بها فخرجت عن حصانتها ، وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟

انها لن تصلح الا بعودتها الى شريعة الدين الحنيف لتؤدى رسالتها التى تهيأت لها فى المنزل بعيدة عن مواطن الشبهات والزلل ، فاذا اضطرها الأمر ودعتها الحياة لتنزل الى ميدان العمل خارج بيتها ، فمفروض عليها أن تتحصن وأن لا تتبرج باسراف ، لتكون مثال الأنثى البريئة المؤمنة — تساعد على السمو الانسانى والسمو الاجتماعى ولاتهبط بهما الى درك الانحلال والعبث بالقيم الرفيعة ..

***

والكتيب الثالث صدر بنشيد سعد زغلول « اسلمى يا مصر » مع بعض مقالات الرافعى نفسه فيما كان من قصة هذا النشيد التى ذكرناها فى حديثنا عن « الأناشيد » — من هذا الفصل .

ويوجد من تراث الرافعى المخطوط — بحوث وفصول كاملة لكتاب « أسرار الاعجاز » فى الحديث عن البلاغة العربية والقرآن وأسرار الاعجاز فيهما .؟ كما يوجد الجزء الأخير من ديوان الرافعى بين عامى ١٩٠٨ و ١٩٣٧ مما لم ينشر فى كتاب ، وفيه شعره فى المديح وفى العاطفة وفى فنون شتى ، تناولها الرافعى بروحه المحلقة فى الأجواء السامية .. وانا لنرجو مخلصين أن يظهر هذا الأثر من ديوان الرافعى وخاصة هذا الكنز الأدبى — أسرار الاعجاز — ولعل الله يوفقنا للبحث عنه واخراجه من أضابير الظلام ..

وجميل بنا فى هذا الفصل أن نختتمه ببعض كلمات صادقة مخلصة للأستاذ سعيد العريان عن أستاذنا الرافعى بعد أن رحل الى عالم الخلود — وكان قد صحبه نحوا من أربع سنوات بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٥ — يقول الأستاذ العريان : « .. انى لأحس حين أذكره الساعة كأننى لست وحدى وكأن روحا حبيبة تطيف بى وترف حولى بجناحين من نور ، وكأن صوتا نديا رفيع النبرات يتحدث الىّ من وراء الغيب حديثا أعرف جرسه ونغمته ، ولكننى لا أرى ، ولكننى لا أسمع ، ولكننى هنا وحدى ، تتغشانى الذكرى فتخيلَ الى ما ليس فى دنياى .. لقد عاش الرافعى فى هذه الأمة وكأنه ليس منها ، فما أدت له فى حياته واجبا ولا اعترفت له

بحق ، ولا أقامت معه على رأى ، وكأنما اجتمع له هو وحده تراث الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة ، فعاش ما عاش ينبهها الى حقائق وجودها ومقومات قوميتها ، على حين كانت تعيش هى فى ضلال التقليد وأوهام التجديد . ورضى هو مقامه منها غريبا معتزلا عن الناس ، لا يعرفه أحد الا من خلال ما يؤلف من الكتب وينشر فى الصحف ، أو خلال ما يكتب عنه خصومه الأكثرون ، وهو ماض على سنته سائر" على نهجه ، لا يبالى أن يكون منزله بين الناس فى موضع الرضا أو موضع السخط والغضب ، ولا ينظر لغير الهدف الذى جعله لنفسه منذ يومه الأول ، وهو أن يكون من هذه الأمة لسانها العربى فى هذه العجمة المستعربة ، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال ، وما كان — رحمه الله — يرى فى ذلك الا أن الله قد وضعه فى هذا الموضع ليكون عليه وحده حياطة الدين والعربية ، لا ينال منهما نائل الا انبرى له ، ولا يتتحم عليهما مقتحم الا وقف فى وجهه ، كأن ذلك «فرض عين» عليه، وهو على المسلمين « فرض كفاية » وأحسبه قال لى مرة وقد كتب اليه صديق يلفته الى مقال نشرته صحيفة من الصحف لكاتب من الكتاب تناول فيه آية من القرآن بسوء التأويل: «من تراه يابنى يقوم لهذا الأمر ان سكت الرافعى ؟ » وما كان هذا من اعتداده بنفسه ، ولكنه كان مذهبه واليه غايته ، وكأن القدرة التى هيأته وأنشأته بأسبابها لهذا الزمان ، قد فرضت عليه وحده سداد هذا الثغر ، وكان الى ذلك لا ينفك باحثا مدققا فى بطون الكتب حينا وفى أعماق نفسه المؤمنة حيناً آخر ، ليستجلى غامضة من غوامض هذا الدين ، أو يكشف عن سر من أسراره فينشر منه على الناس ، وأحسبه بذلك قد أجد على الاسلام معانى لم تكن تخطر على قلب واحد من علماء السلف ، وأراه بذلك كان يمثل « تطور الفكرة الاسلامية » فى هذا العصر . فاذا كانت الأمة العربية المسلمة قد فقدت الرافعى ، فما فقدت فيه الكاتب ولا الشاعر ولا الأديب ، ولكنها فقدت الرجل الذى كان ولن يكون لها مثله فى الدفاع عن دينها ولغتها ، وفى النظر الى أعماق هــذا الدين يزاوج بينه وبين حقائق العلم وحقــائق النفس المستجدة فى هذا العصر ، وقد يكون فى العربية اليوم كتاب وشــعراء وأدباء لهم الصيت

النابه ، والذكر الذائع والصوت المسموع ، ولكن أين منهم الرجل الذى يقوم لما كان يقوم له الرافعى : لا يترخص فى دينه ولا يتهاون فى لغته ، ولا يتسامح لقائل أن يقول فى هذا الدين أو فى هذه اللغة حتى يرده من هدف الى هدف أو يفرض عليه الصمت .

لقد كان الرافعى صاحب دعوة فى العربيـــة والاسلام يدعو اليها ، فحقه على العربية ، وحق العربية على أدبائها ، وحق الاسلام على أهله ، أن نجدد دعوته وأن نبقى ذكره ، وأن تنشر رسالته وأن نعنى بآثاره ، فاذا نحن قد وفقنا الى كل أولئك فقد وفَّينا له بعض الوفاء .. » .

ذلك واجب الدعوة الصادقة من صديق أمين وأديب كريم ، يهتف به الأستاذ محمد سعيد العريان كجزء من الواجب الكبير المفروض على الأدباء بل وعلى الدولة التى هى الدعامة الأولى فى التشجيع على اقامة ذكرى مثل أديبنا الكبير الرافعى ونشر آثاره والاضطلاع بدعوته العظيمة الى السمو الأدبى والخلقى والدينى ..

انهم لابد فاعلون ، ونحن نعرف اليوم أن « المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية » فى القاهرة ، يشرف على مثل تلك الأعمال التقديرية والتكريمية للأدباء والعلماء والمفكرين .

حبّ الرافعي

كما تتفتح النفوس للحياة ، والأزهار للربيع ، والمحاسن للطبيعة .. وكما تزقزق العصافير فى السحر وتترنم البلابل بالجمال ، كذلك كان قلب الرافعى : جدولا يسرى بالألحان البديعة فى رياض الحياة البهيَّة الجميلة المشرقة .. انه فى تفتحــه للحب والجمال يتألق ســامياً فى هذه الرياض الخالدة التى هى سر بقاء الجنس البشرى ..

أجل يتألق عالياً : روحاً بريئاً ، ومعنى طاهراً ، وصلات شــاعرية ونظرات فنية تتأمل وتستلهم .. من هنا يجنى الرافعى جناه وتتفاعل هذه المعانى مع فكره وفنه لينتج ويكتب رِوائعــه .. فما الحب فى حيــاته الا السمو والفلسفة .. والا الشعر والبيان .. الا الوهم والــكبرياء .. الا الالهام والفن .. والرافعى يعنى كل ذلك عندما قال :

« ان النابغة فى الأدب لا يتم تمامه الا اذا أحب وعشق » .

ويقول فى كتابه السحاب الأحمر : « الحب بعض الايمان ، وكما أن الطريق الى الجنة من الايمان بكل قوى النفس ، فان الطريق الى الحب من قوة لاتنقص عن الايمان الا قليلا، والخطوة التى تقطع مسافة صغيرة الى القلب تقطع مسافة طويلة الى السماء » .

هذا هو ايمان الرافعى بالحب : الحب القدسى ، حيث لا ريبة ولا اسفاف ولا مجون ، انه الحب فى أجمل وأعظم معانيه ..

يقول الأستاذ العريان عن ذلك : « هذا الذى يكتب عن اعجاز القرآن وأسرار الاعجاز والبلاغة النبوية ويصف عصر النبوة ومجالس الأئمة وكأنه يعيش فى زمانهم وينقل من حديثهم .. هذا الذى كانت تتصل روحه فيما يكتب — من وراء القرون — بروح الغزالى ، والحسن البصرى وسعيد

ابن المسيب ، فما تشك فى أن كلامه من كلامهم وحديثه من الهام أنفسهم.. هذا الذى تقرأ له فتحسبه رجلا من التاريخ قد فر من ماضيه البعيد وطوى الزمان القهقرى ليعيش فى هذا العصر ويصل حياة جديدة بحياة كان يحياها منذ ألف سنة أو يزيد فى عصر بعيد .. هذا الرجل كان عاشقا غلبه الحب على نفسه وما غلبه على دينه وخلقه .. » .

***

وبهذا الحب السامى الرائع ظفر الأدب العربى بثروة مما كتب الرافعى فى مؤلفاته الأربعة : حديث القمر ورسـائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد ، وفى بعض القصص من مؤلفه الضخم « وحى القلم » .

عرف قلب الرافعى حبه الأول فى « عصفورة » وهو بعد فى الحادى والعشرين من عمره ، وهى مصدر وحيه فى شعر الجزء الأول من ديوانه .. ثم عرف جميلات أخريات أحبهن .. وما أحب فيهن الا مصدر ذلك الوحى كأنما كان يدعو كل فاتنة محبوبة لتبادله الحب فيستلهم وينظم ويكتب .. وكل الحسان عنده شاعرات .. كل بنسبة جمالها ، وفيهن الهادئة والساحرة والعاصفة والفاتنة والرائعة والعبقرية .. الخ .

ويخبرنا الأستاذ العريان عن شكلية بعض مناظر هذا الحب فيقول :

« وحين يجلس (يعنى الرافعى) فى الشرفة من « قهوة » لمنوس بطنطا ، وتمر به الجميلات فى رياضتهن أو فى حاجتهن تسمع ثبتا حافلا بأسماء الشعراء يبدأ بمهلهل بن ربيعة وينتهى بفلان الذى يؤمل أن يكون أمير الشعراء بعد أن يموت كل الشعراء .. » .

كان ذلك حال الرافعى فى هذا الحب المتنقل الى ينـابيع الحسن والالهام حتى فى حبه الذى عرفه عام ١٩١٢ م عند زيارته للبنان ، وأنجب كتابه « حديث القمر » وقد أضاف اليه قصيدته « الشرق المريض » التى تعتبر حلقة وضاءة فى وصفه لتقاليدنا العربية المستبدة بالفتاة .. وفيها يقول :

« ربوا له الأم يا قومي فلو وجدت
في الشرق ما طاح في ذل واهوان
تلك التي ترفع الدنيا وتخفضها
بطفلها ، فهو والدنيا بميزان
تلك التي جعلوها في المنازل كالـ
ـمراة مطروحة في دار عميان
يا بانيا بقلوب الناس يجعلها
قصر الحياة ، تبصر أيها الباني
أسس على الحب لاتلق القلوب سدى
وضع لكل فؤاد شكله الثاني
فلست تبني سوى دار اذا خربت
أركانها خربت من كل عمران »

وبديع جدا من الرافعي وصفه لجمال فاتنة حديث القمر هذه أذ يقول :

« رحمة لهذا الجمال .. وجه وضيء الطلعة كأنه السعادة المقبلة ، يصل اليه دم الشباب من القلب فيتحول فيه الى جمال وفتنة ، كما تجول قطرات الماء في غصن الياسمين ثم تتحول في تلك الزهرة الطاهرة العطرة الى جمال وابتسام ، وكأن معاني الحسن التي تتحير في خديه حقيقة الهية تطل على النفوس من وراء الشفق .. فيه حاجبان كأنهما تمثيل للانحناء الخطي في الهندسة السماوية التي وضع الجمال على قواعدها ويمتدان فما أدري ما أمثلهما به غير أني لاأظن الفتنة القلبية تمتد مجتمعة الا بمثل هذا اللطف ، وينتهيان الى طرفين دقيقين لا يغمز بهما الا ثقبا القلب من جانبيه .. وتحتهما عينان تنظران — والله — بروح تكاد تنطلق ولا يفهم عنها الا كأنها ناطقة ، وتضطربان فكأنما يضطرب معهما جلال السماء اذ يلوح في صفائهما ، وتغضبان تفترا ودلالا فكأنما تلقيان على الروح فترة تحلم فيها من أحلام السماء وتستيقظ وتدوران بما يشبه الحياة والموت كأنهما الكلمتان الالهيّتان « كن ويكون » في محجرين واسعين كأنهما في هذا الجمال منفذ للقضاء والقدر ، وخدان تحيَّر فيهما الجمال فوقف يتلفت عن يمين وشمال وتظن من التهابهما بشعاع الجمال أن العقل انقسم فيهما الى فكرين يتوقدان ليقبس منهما الشعراء نار النبوغ التي يضطرم بها العقل والقلب والروح فيصرن جميعاً شعلة واحدة تضيء بالشاعر على آفاق الحكمة والحب والايمان ، وتراهما أسيلين بارزين فيالله .. هل هما ثديان صغيران من الورد يرضعان طفل الحب — الذي هو النحلة الالهية في لذع الأرواح واطعامها — العسل والمعسول ؟.. وبين الخدين أنف جميل تنحدر عليه اللحظات الفاتنة وتلتقي اليه الأشعة الوردية فهو

خلاصة الجمال ، وتراه بين ذينك الخدين كالانصاف بين القوتين ، فالنظرة اليه واليهما ترجع الى قلب المحب بالخوف المطمئن الذى لا ينفك يخوفه الحب ويبعثه عليه .. ودون ذلك فم أصغر من فم الحقيقة . كأن فى شفتيه الرقيقتين الحمراوين روح الدم ، ولقد استدارتا على ثغر هو الكأس التى يسكب فيها حنين الروح ممزوجا بلهفة القلب معطرا بابتسامات العواطف الشريفة التى أزهرت فى ربيع الغرام ، ويرشف كل ذلك فى قبلة لا يراها العاشق السعيد الا روحا من الحب يؤتمن عليها ضميره الشريف .. يارحمة لهذا الجمال كله اذ يباع كأنه عرض من العروض التجارية ، وهل يكفر عن جريمة القتل أيها الأغبياء أن تكون دية القتيل كفناً من خيوط الذهب ؟ » .

ان الرافعى يشير هنا الى الطريقة التى تزوجت بها هذه المحبوبة « مارى » وهاجرت مع زوجها الى أمريكا ، ويستطرد الرافعى فى هذا الفصل قائلا :

« أيوثق فؤاد الحسناء بالسلسلة الربوض التى صيغت من كلمات الزواج ثم يشد طرفها فى يد الرجل الذى تكرهه أو ستكرهه شخص البعض ويقال مع ذلك انهما ارتبطا برباط مقدس؟.. ألاتسمع أيها البغيض صلصلة هذه السلسلة فى دمعها أو فى تنهدها أو فى أنينها وكل ذلك لعنات تنسكب من جوانب روحها ..؟ » .. الى أن يقول فى هذا الوصف البليغ :

« يا لها من عداوة ثابتة بعقد وشهود .. وبين القبول والرضى والبركات .. وفى ثياب العرس أيضا ..؟ ويا لها سخرية فظيعة من القلب الانسانى وما فيه من الفضيلة والحب .. ويا له من نفاق بارد يُراءى به الله خالق القلب وتقابَل به الملائكة موئل الفضيلة ، وتواجه به هذه الحسناء عرس الحب فى وقت معا ، وكم من مرة رأيت عالما يوثق عقدة الزواج بخطبته ، وكاهنا يربط القلبين بكلماته رباطا مقدسا ، فكنت أهتز من المفرق الى القدم خشية أن تكون روح المصادفة العمياء فى ثياب هذا العالم أو الكاهن، فان ثلاثة تأتى الى الانسان من تلقاء نفسها وهو يتقى

منها جهده : هذه المصادفة والعداوة والنحس ، وقلما أحس انسان باحداها الا فوجيء بثلاثتها جميعا ، وكذلك أشأم ما يبعد فى الشر تعدد شؤمه » .

فلسفة في الوصف وابداع في التعبير : انه السنن الذى يكتب به الرافعى أينما اتجه واستوحى وكتب ، وكيفما قدر له أن يتناول من مواضيع وأحداث ليفتن ويبدع ويغذي الأفكار وهو يسجل تجاربه وينفث خواطره .

ولقد ظل الرافعى يتذكر حبه لصاحبة « حديث القمر » ويكتب عنها كلما هتف به الحنين الى الماضى والى تلك الأيام القصار التى استمتع بها خياله وطابت لها نفسه وعقد عليها الكثير من الآمال التى ظلت أحلاما لا ترف الا بالذكرى ..

وعندما تخطى الرافعى العقد الرابع من عمره بنحو ثلاث سنوات كان يشرف على حب جديد .. حب عميق جبار .. حبه الأخير الذى عاش فيه يتضرم به قلبه ، وتسرح معه خواطره ويسيل قلمه بروحانيته وفنه — حتى غادر الدنيا ..

ففى أوائل عام ١٩٢٣ م قصد الرافعى الى ندوة الأديبة المعروفة الآنسة (مى) — فى مجلس الثلاثاء المعتاد ، حيث تستقبل الأدباء والاعلام — وفيهم العشاق الظماء الى الاجتماع ببعضهم البعض فى مكان كريم محبوب تديره أديبة جميلة رائعة .. وقد كانت (مى) — يومها — هى الشغل الشاغل لجيل من الأدباء نحو ربع قرن ..

رآها الرافعى فوقعت من نفسه فى أول لقاء .. وكانت هى فى منتصف العقد الثالث من عمرها ، مهيبة الشخصية رزينة الطباع بديعة التكوين ، فضلا عن سمات الحسن الفاتن الذى يشرق به محياها الجذاب ولفتاتها الملائكية الحالمة .

كان قلب الرافعى فى ظمأ الى مثلها ، وخياله فى لهفة الى صورتها .. فما كاد يراها حتى قال لنفسه : وجدتها وجدتها .. وكان يتهيب الموقف ليصرح لفاتنته الأديبة بهذا الشيء الذى سحره وجذبه اليها بكليته حتى لا يجد عنها مصرفا ، وكأنما كان على موعد مع القدر مرة أخرى — وهى

محاطة بكبار الأدباء ممن هم فى سنه وممن شاخوا وأشعة الحيويةالدفاقة تغمرهم من نظرات الأديبة الجميلة ومن فنون حديثها العذب وقيافتها الوادعة البديعة .

لقد أحبها الرافعى وكاتم هذا الحب الكامن فى الدم والمشاعر ، أياما لم يطق بعدها الا أن يكشف عنه ويشرح لتلك سريرته فى رسائل ، فتجد هى فيها صدق الاخاء ومحبة الصديق المخلص ، ودأبت تطب مشاعره بلطفها وبراعتها فى التحدث وارضاء الجميع ممن حولها .. ومن ذلك كان يخيل للرافعى أنها تبادله الحب وتخفيه عن الذيوع لئلا ينال أحد من سمعتها وتلوك الألسن الخبر على مختف الوجوه ، وحتى لو كانت تحب الرافعى — وهى فعلا كانت تحب مجهولا تتألم لكتمانه قد يكون هو أو غيره — فما كان لها هى من وضع تتخذه غير الموقف الذى وقفته من الجميع فى الكبت والتكتم بالنسبة لمكانتها وشخصيتها .. الا أن الأستاذ سعيد العريان يكاد يؤكد ان الحب بين الرافعى ومى كان متبادلا استنادا الى ما تحدث به الرافعى له ولغيره عن هذا الحب .. ان الأستاذ العريان يقول عن الرافعى فى ذلك :

« ولمسه الحب لمسة ساحر جعلت فى لسانه حديثا ولعينيه حديثا ، وطال انفرادها به عن ضيوفها فما تركته الا لتعتذر اليهم فتعود اليه .. ثم قامت تودعه الى الباب وهى تقول : «متى تكون الزيارة الثانية ؟ » .. ووقع من نفسها كما وقعت من نفسه فما افترقا من بعدها الا على ميعاد . وكان الرافعى أول من يغشى مجلسها يوم الثلاثاء وآخر من ينصرف فان منعه شيء عن شهود مجلسها فى القاهرة كتب اليها من طنطا وكتبت اليه، على أن يكون له عوض مما فاته يوم وحده .. كان يحبها حبا عنيفا جارفا لا يقف فى سبيله شيء ، ولكن حبه ليس من حب الناس ، حب فوق الشهوات وفوق الغايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية . لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح ، وقد وجدها ولكن فى نفسه لا فى لسانه وقلمه ، وأحس وشعر ، وتنورت نفسه الآفاق البعيدة ، ولكن ليثور بكل ذلك دمه وتضطرم عواطفه ولا

يجد البيان الذى يصف نفسه ويبين عن خواطره ؟. ولقـد كتب ونظم وكان من الهام الحب شعره وبيانه ، ولكنه منذ ذاق الحب أيقن أنه عاجز عن أن يقول فى الحب شعرا وكتابة ، ومات وهو يدندن بقصيدة لم ينظمها ولم يسمع منها أحد بيتا ، لأن لغة البشر أضيق من أن تتسع لمعانيها أو تعبر عنها ، لأنها من خفقات القلب وهمسات الوجدان .. ونظر الرافعى اليها « الى الحبيبة » والى نفسه وراح يحلم ، وخـيل اليه أنه يمكن أن يكون أسعد مما هو ولو أنها.. لو أنها كانت زوجته .. ثم عاد الى نفسه يؤامرها ، فأطرق من حياء .. وكانت خطرة عابرة من خطرات الهوى أطافت به لحظة وما عادت . وقالت له نفسه كلاما وقال لنفسه كلاما آخر ، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها من قبل بعينى العاشق فلم تكد القصة تبلغ نهايتها وتنحل العقدة حتى جاءت كبرياؤه لتخط الخاتمة .. وراح الرافعى يوما الى ميعاده وكان فى مجلسها شـاعر جلست اليه تحدثه ويحدثهـا ، ودخل الرافعى فوقفت له حتى جلس ، ثم عادت الى شاعرها لتتم حديثا بدأته ، وجلس الرافعى مستريبا ينظر ، وأبطأت به الوحدة وثقل عليه أن تكون لغيره أحوج ما يكون اليها ، ونظر الى نفســه والى صاحبه ، وقالت له نفسه : « ما أنت هنا وهى لا توليك من عنايتها بعض ما تولى الضيف ؟ » فاحمر وجهه وغلى دمه ، ورمى اليها نظرة أو نظرتين ، ثم وقف واتخذ طريقه الى الباب .. واستمهلته فما تلبَّث ، وكتب اليهـا كتاب القطعية .. وعاد اليه البريد برسالتها تعتذر وتعتب وتجدد الحب فى أســطر ثلاثة ، ولــكن الرافعى حين وجـد كبرياءه نسى حبــه ، وكان هو الفــراق الأخير .. » .

حقا لقد كان كبرياء الرافعى أكبر من عواطفه ، ولكنه تعذب بسببه ونال منه ماكان يمكن أن ينال بدلا عنه من النعمى وحلاوة القرب .. وكأنى بقلبه يهتف ويصادق على ما قاله الشاعر العربى القديم :

« على أن قرب الدار ليس بنافع   اذا كان من تهواه ليس بذى ود »

لقد كان الرافعى آنذاك يستحضر أفكاره ويستوحى كبرياءه ، ويقبل على يراعه يبثها أحزانه وينفث اليها بخبره وشجونه وأوهامه فى «رسائل

الأحزان » نثرا وشعرا .. وقد قال فى تعريفها : « هى رسائل الأحزان ، لا لأنها من الحزن جاءت ، ولكن لأنها الى الحزن انتهت ، ثم لأنها من لسان كان سلما يترجم عن قلب كان حربا ، ثم لأن هذا التاريخ الغزلى كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضيا الى قبر .. » .

***

والرسالة الثالثة شعرا وهى قصيدة « حيلة مرآتها » فى ٤١ بيتا مطلعها :

« حسناء خالقها اتم جمالها ... سألته معجزة الهوى فأنا لها »

ويستمر فى الوصف الى أن يقول :

« ورأت صفا المرآة يشبه قلبه : ... مهما تحمله يكن حمالها »

ويختتم قصيدته بقوله :

« كادت تقول : رضيت عنه فأمسكت ... ومضت على عجل لتخفى حالها
أواه لو مرآتها نجحت .. ولو ... فمها تبسم عند ذاك وقالها »

والرافعى فى « رسائل الأحزان » هذه يكتبها كأنما هو يكتب الى صديق رسالة ، ثم يتلقى ردها : فهو تراسل يصوغ فيه القصة والخواطر ..

وفى الرسالة السادسة يذهب الى وصف حبيبته مذهبا جديدا اذ يقول :

« أما انها فتنة خلقت امرأة ، فاذا نظرت اليك نظرتها الفاترة فانما تقول لقلبك : اذا لم تأت الىّ فأنا آتية اليك .. خلقت مقدرة تقديرا كأن كل شىء فيها وضع قبل خلقه فى ميزان الجمال ووزن هناك بأهواء القلوب ومحابها ، وكأنها بعد أن تم تكوينها أرسلت الملائكة فى دمها نقطة عطر ، فهى تنفخ على القلوب برائحة الجنة ، وهى أبدا تشعر أن فى دمها شيئا لا يوصف ولا يسمى ولكنه يجذب ويفتن ، فلا تراها الا على حالة من هذين ، حتى ليظنها كل من حادثها أنها تحبه ، وما بها الا أنها تفتنه ..

رشيقة جذابة تأخذك أخذ السحر ، لأن عطر قلبها ينفـذ الى قلبك من الهواء ، فاذا تنفست أمامها فقد عشقتها » .

ثم يقول الرافعي عن ملهمته هذه في مطلع الرسالة العاشرة : « لقد وصفتها لك أيها العزيز وملأت رسائلي منها ، غير انى والله ما أدرى أو صفتها أم وصفت بها ، وكتبت منها أم كتبت عنها ، فانما ذلك مطلب دونه أن تجعل وصف الجمر يلذع لذع الجمر ، ومهما أكتب فانها باقية فى نفسى لا تنقص على قدر ما تزيد .. ان بيها شيئين هما الفكر والجمال ، وفى شيئان هما الخيال والحب ، وهذه الأربعة تنشئها في نفسى خلقا بديعا لم أره لامرأة قط ، ففيها وحدها زيادة عن النساء ، لأن فيها وحدها نفسى » .

***

هكذا كان الرافعي يجد هذه الأديبة الفاتنة في قلبه وفى حسه وفى نفسه : روحا ساحرا وطائفا عجيبا قد استحوذ على كل مشاعره حتى جعله يتقد فى كبريائه ويثور ويهجر حتى أجواء الحبيبة وديارها .. وهو قدكان يؤمن صادقا بأن هذه الحبيبة الانسانة ينطبق عليها قول أبى الطيب المتنبى:

ولو كان النســـاء كمثل هذى ، لفضـلت النِســـاء على الرجـال

والرافعي فى بعده عنها يتذكر أيضا تلك التى كان قد أحبها وكتب عنها «حديث القمر» .. يتذكرها فى « أيام لبنان » : فتكون هذه القصيدة — وهى الرسالة الخامسة فى رسائل الأحزان — وفيها يقول :

« أيام لبنـــان وكانت ســاعة غفرتْ ذنوب الدهـر فى أعوام
غفل الزمان هنـــاك من غفـلاته ففـــــررت للـــذات من آلامى
وقطعت من ثوب الشباب عصابة وربطت من جرح الحيـاة الدامى
ومضيت أصـعد ذروة فى ذروة كالنجم مشتملا علىَّ غمـــامى
فى كل منـــزلة وكل ثنيـــة يضع الهـوى قمـراً يضىء أمامى
وعلوت حتى عن أمانى الحيـــا ة ، وغبت حتى غبت عن أوهامى »

الى أن يقول بعباراته الحلوة :

« يا نفحة الجنات من تلك الربـا كم ذا يطول تلهفى وهيـــامى
بينى وبينـك بحــــر دمع يرتمى من عين مهجـور وبر خصـــام
لهفى على ريح الشـــآم ، ونظرة من أرضها لهـوى هنـاك نامى »

هذه الذكرى البعيدة تطوف بخيال الرافعي وهو فى خضم ذكرياته الجديدة ، كأنما تلقى بالنـدى فى الجو الحرور الذى يتلهَّب حوله .. ولكنه يعود ليقول بكبرياء فى الرسالة الأخيرة :

« أيها الجميل الذى يحسب كل شيء موطيء قدميه ، ان ذل لك الحى بدموعه لم يذل لك الأموات العظماء الذين اسـتودعوا لآلىء كبريائهم الكريمة فى الأصداف من عظامه تحت الأمواج الجياشة من دمه الحر ، ومن لم تعزه نفسه فلا يصلح الا أن يكون رجلا لا يصلح .. » .

أترى كان الرافعي يمهد لما سيكتبه بعد ..؟ حتى انه قال فى ختام الكتاب هذين البيتين :

« آه من الدنيـــــا ومن قـــدر على الدنيـــا حـكم
البغض شيء مؤلـــــــم والحب شيء كالألـــــم »

انه بعـد طبع « رسائل الأحزان » وأهدائه نسخة لتلك المحبوبة ، تلقى منها رسالة بالرد على ما كتب—أغضبته وأثارت ثائرته ثانية ، فواصل جهـده يسطر كتابه « السحاب الأحمر » .. ودفعتـه غضبته الى جعل « الفصل الثانى » من الكتاب حديثا عن « النجمة الهاوية » — بطائفة من الخواطر فى طائفة من النساء — فيقول كأنمـا يثأر لنفسه وحبه :

« وقلت يوما فى صفة احدى القصائد البديعية : انها فن من الشعر وفى احدى الصور المحكمة : انها فن من التصوير ، وفى تلك الجميلة : انهـا فن المرأة .. أما الآن فقد عرفنا أن اصفرار الشمس ايذان بسواد نصف أرضها ، فى قلب الرجل ألف باب يدخل منها كل يوم ألف شيء ، ولـكن حين تدخل المرأة من أحدها لا ترضى الا أن تغلقها كلها .. فى المرأة حقيقة ، ولكنها لن تعرفها الا بفكر رجل ، فالكاملة من لا تسيء أحدا والا أساءت الى حقيقتها ، يجب على المدارس حين تعلم الفتاة كيف تتكلم ، أن تعلمها أيضا كيف تسكت عن بعض كلامها .. شر النساء عندى وعندك هى التى تجعلك تتنبه الى ما فى النساء من الشر !! » ..

وهنا بيت القصـيد .. ترى ما الذى قالتـه له الأديبة الجميلة فى رسالتنا فثار يدمدم وقام ينشر لفكرته ويزيد من كبريائه ليقول : «يخيل

الى أن عقل بعض النساء مثل وجوههن المزورة : تحته ما تحته وليس عليه الا غبار من العقل » .

ثم يختتم هذا القول بهذين البيتين فى دلال :

« يا من على الحب ينسانا ونذكره لسوف تذكرنا يوما وننساكا
ان الظلام الذى يجلوك يا قمر له صباح متى أخفاكا »

والرافعى قد قال فى مقدمة « السحاب الأحمر » مبينا طريقته فى انشائه ووضعه :

« وقد استوحيت من أرواح فيها الحبيب والبغيض والصديق والمظلوم والظالم لنفسه ، ومن عقله قلبه ، ومن حبه منفعته ، وفيها أضعف ما عرفت من العقول وأقواها .. فمن هذه السماء توكّفت هذا السحاب ، وانى لأشهد أنى فى بعض فصوله كنت أحامى عن الحب أن ينتفض فأدير الكلام على ذلك فيلتوى ، ثم أراه لاينقاد ولا يتابع الا على خلاف ما أريد ، فاذا أخذت فى المذهب الذى يعن لى اتفاقا وعرضا ، تحدر الكلام تحدر الدمع من حيث لا يملك أحد أن يفيضه أو يكفه لأنه عبد أسبابه الباطنة » .

ويختتم المقدمة بقصيدة فى عشرين بيتا من عيون الشعر الغزلى يقول فى آخرها :

« ويلى على متدلل ما تنقضى عنى فنونه
كيف السلو وفى فؤا دى لا تفارقنى عيونه »

وهو يقول فى تفسيره لهذا الحب العاصف : « لا يصح الحب بين اثنين الا اذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر : يا أنا .. ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين — حين يقع — أعنف ما فى الخصومة ، اذ هو تقابل روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة .. وأكثر خصيمين فى عالم النفس ، محبان تباغضا » .

انه تعريف صحيح ينظر طويلا الى ذلك المثل العربى القائل :

« احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة » .. وان كانت تلك النظرة من زوايا خاصة .. فهل درى المحبون أنهم على فجوة قريبة من البغض ؟ هل كان الرافعي فى حبه الكبير العارم يبغض حقيقة من قد أحبها ؟ أم انه نوع من التجافى والتدلل وارضاء الكبرياء ؟ لعله ذلك ولعله غيره .

ان الرافعي فى كل فصول «السحاب الأحمر» يستدرج الشخصيات — التى تناول الكتابة عنها أو بلسانها — لتعبر برأيها فى الصداقة والحب . وفى التباغض وطباع الناس وعواطفها .. ويشرح هو بفنه أفكارها ومشاعرها ، ثم يذكر حبيبته بين كل حين وآخر بأنه يسلوها — وما هو بسالبها — وكأنما يريد اثارتها وايجاد الغيرة فى نفسها ... ولكن الرافعي بعد أن تهدأ ثائرته تعود السكينة الى نفسه — مع مر الأيام — يعود الى تفكيره فى الافادة من حبه ، ويسلم مقاليد عواطفه لمشاعر هذا الحب ويسترسل فى خواطره : يستوحى ملاكه وينشىء رسائله — بل قصائده النثرية — ويجمع قصاصات ما كان يكتبه وما خطت هى اليه من سطور ليضعها فى اطارات « أوراق الورد » ثم يقول فى ختام مقدمته لها :

« وكان القدر ينقّى حوادث هذا الغرام كما تُنقّى المدرةُ من الحب بأصابع دقيقة تحت عينين مبصرتين ، فكانت النفس فيه من جمحاتها كالترس تترامى فى عنانها مخلى لها الطريق ، ولكن أمر الطريق لها ونهيه فى العنان الذى يلجمها . وظلمات الحب فى بعض النفوس المختارة كظلمات الليل فى بعض الليالى : هذه لها القمر وتلك لها الفضيلة . وما أحسب حب هذا الشاعر وتلك الشاعرة قد كان فى كل حوادثه الا تأليفا من الأقدار لهذه الرسائل بمعانيها ، حتى اذا كسيت المعانى ألفاظها ، انبثقت كالنور وصدحت كالنغم وجاءت كاشراق الضحى ، لتتناسم الأرواح بعبارات صافية من روح قوية فرض عليها أن تحب ، فلما أحبت فرض عليها أن تتألم ، فلما تألمت فرض عليها أن تعبر ، فلما عبرت فرض عليها أن تسلو .. » .

١

وهكذا كان يأمل السلوان ، ولكنه ظل يداوى هواه وما استطاع اليه سبيلا .

وأوراق الورد هذه مزيج مما كتبه الرافعى عن تلك التى عرفها وأحبها عام ١٩١٢م صاحبة حديث القمر .. ومقتطفات من رسائلها اليه ثم مما كتبه عن الحبيبة الأخرى الأديبة الآنسة « مى » وما تحدثت أو كتبت به اليه ، فيصوغ كل هذه الرسائل بأسلوبه .. وهو اذ يعلق على رسائلهما اليه انما يعنيهما معا — هى وتلك — كل من زاوية خاصة .. فيقول :

« ليعلم القارىء أن الصديق — صاحب الرسائل — تلقى من صاحبته رسائل كثيرة ولكنها كالصحافيين :لها من دلالها ، قانونمطبوعات تراقبه .. وقلمها قلم فنانة ، فيه مع الجمال عبث جميل .. وهى الى الآن لم تأذن بنشر رسائلها ، وانما استرقنا هذه وبعض فصول من غيرها . أما لغة الرسائل فليست لها ، بل هى من تهذيب صديقها وفى يقيننا أنها لو كاتبته لاتمام رسائله وأفرغت له قلبها وفنها كما فعل هو ، لظفر منها الأدب العربى بأثمن كنز فى معانى الحب ، وأهل ذلك ، كانت وكان صاحبها ، فقلما وجد مثلهما » .

لقد كان يستوحى من الاثنتين : يستلهم الأولى رقتها معه فى الذكريات الحلوة وفى مواعيدها العذاب التى لم تتحقق ، ويستلهم من الثانية معانى الألم فى حبه وفى كبريائه وأوهامه ..

ويقع « أوراق الورد » فى نحو ٣٢٠ صفحة من القطع المتوسط وفيه تسع قصائد كاملة ، عدا ما يرد فى بعض الرسائل من شعر منظوم أيضا .. وكل هذه الرسائل شعر منثور قد يسمو بعضه حتى على الشعر الموزون فى قوته وبلاغته وتدفقه كالجدول الرقراق والأغنية الشجية الرقاقة بمعانى الجمال والحياة الزاهية .. ولا أدرى كيف لى أن أختار من هذه الدرر الخوالى وأعطى صورة شاملة عن نمط من هذا الترسل البديع الذى صاغه القلب ولونه الخيال قبل أن يكون سطورا تقرأ .. على أننى أثبت هنا بعض الألوان المنوعة منها اتماما للفائدة .. فهذى

رسالة « جواب غريب » كتبها الرافعى بعد أن أرسل للحبيبة الأديبة رسالته « أما قبل » فأرسلت هى اليه الرد فى صورة كتابها الأدبى « ظلمات وأشعة » .. كتب الرافعى فى « جواب غريب » يقول :

« ... فقرأت الكتاب سطوره وبين سطوره ، وأعنت نفسى فى تأويل كل عبارة وتعرف سببها الذى أتخيله ، وتبين موقعها الذى أتمثله ، وجعلت أتوجه بالكلام مستقيما تارة وملتويا ، ثم لا أجد الكلمة التى هى جوارحى ، ولا التى يقف عندها قلبى ولا التى تقول لى أنا من لغتها ، ولا الأخرى التى عليها أثر عينيها .. وكنت فى كل ذلك أرى الكتاب كأنه بين يدى يموت ويحيا من كثرة ما أقول : ليست هذه ، بل هذه ، ولكن هذه .. وجعلت لا أكاد آنس بكلمة حتى أجد الوحشة فى التى الى جانبها ، وقدرت أن الجواب ربما كان جملة قصيرة أو كلمة مفردة ، فصدعنى ذلك تصديعا ذا فنون ، وكأن مؤلفة الكتاب كانت تعلم من علم الغيب أنها ستضرب بكتابها يوما هذه الضربات على قلب انسان من الناس ، فكانت فى تأليف كلامها تصد وتعرض ، وفى ترتيب مقالاتها كأنها ترتب ثورة غيظ من سببها الى نشأتها الى اهتياجها الى عنفوانها .. ثم كأنى كنت دائما فى ليل طويل ، وطلعت على وجهى الشمس ضاحية ، فاذا أنا كنت أجهد فى غير طائل ، واذا الجواب فى آخر الكتاب صفحات متلاحقة ، فضلا عن صفحة ، فضلا عن جملة ، فضلا عن كلمة ، فكان هذا من ظرفها ومكرها معا » .

وهذا مطلع الجواب :

« لقد التقينا وسط جماعات المثقفين فيما بينهم للضحك من سواهم حينا والضحك بعضهم من بعض أحيانا .. أنا منهم واياك غير أن شبهك بهم يسوءنى ، لأنى انسا أقلدهم لأريك وجها منى جديدا ، وأنت أتجاريهم بمثل قصدى أم الهزؤ والاستخفاف فيك طوية وسجية ؟ »(١)

(١) ما اقتبسه الرافعى هنا من كتاب مى « ظلمات وأشعة » هو من مقالين باسم « أنت أيها الغريب » و « قرب منعطف السبيل » ، ويعتقد هو أن الكلام موجه اليه .

وتترك الرافعى يستكمل ما اقتبسه من المقالين فى الكتاب ثم نسمعه يقول فى رسالة الابتسامة :

« لا يمكن القلب أن يعانق القلب ، ولكنهما يتوسلان الى ذلك بنظرة تعانق نظرة ، وابتسامة تضم ابتسامة .. تلك يا حبيبتى كلمة سماوية مخلوقة من الضوء فى شفتيك الجميلتين ، تعبر عن كل شيءبحركة واحدة لا تتغير ولا تختلف ، على حين أن معانيها فى النفس دائبة فى تغيرها واختلافها .. »

ورائعة جدا هذه الأبيات الأربعة فى رسالة الطيف الحالمة :

« حيا وسلم ثم صافح تاركا ... يده على الكبد التى أدماها
وأتى ليعتذر الغزال ولجلجت ... كلمات فيه ، ففى فمى أخفاها
ودنا ليعترف الهوى ، فتهالكت ... أسراره ، فرمت به فرماها
قلب الحبيب متى تكلم لم تجد ... كلما ، ولكن أذرعا وشفاها »

انها لغة الحب وترجمة أحلام القلب الواله .. وبهذه اللغة الصريحة البريئة هنالك فصلان عقدهما الرافعى بحديثه مع كل من الحبيبتين وبحديثهما هما معه فى « قالت وقلت . وقلت وقالت » ، ثم فصل آخر « من قلمها » يضم أجزاء من رسائل هاتين الحبيبتين .. كتبت له الأولى تقول : « أخرت جواب رسالتك لتجيب عنى بظنك ، وسيجيب بأنواع متناقضة مما يسوءك ويسرك ، وتضع فى أجوبتك مائة «نعم» ومائة «لا» ثم يأتيك بعد كلامى فينزل من نفسك منازل لا منزلة واحدة .. »

وتكتب له الثانية « الأديبة » تقول : « أنا انسانية أعطف على كل أحزان العالم ، ولكنى لو تألمت لكل المتألمين لما أثاروا فى نفسى الا الجزء الأصغر مما تثيره فى « آلام صديق » .

وتقول هى أيضا : « أضفت كلمتك . الى سجل هفواتك فى حق هذه المخلوقة التى لا ذنب لها سوى طيبة نفسها ، ومن استحق أن تكون طيبة نفسه من ذنبه فقد استحق أن تكون من عقابه عند نفسه . أتريد منى التوبة عن أن أكون لك طيبة النفس ؟ » .

ترى أكان حقيقة هذا منها ؟.. فلماذا اذن يبقى الرافعى على بعده وكبريائه وهو الذى يثبت كلامها فى كتابه كأنما يؤكده مرتين ؟

ولم يكف الرافعى بعد « أوراق الورد » عن أشواقه واشتغال قلبه بهذا الحب الخالد.. فكتب عدة فصول وقصص يعالج بها أوضاع مختلفة من شئون المجتمع . وقد نشرت فيما بعد فى كتابه « وحى القلم » وفى معظمها مشاعر وظلال من هذه الذكرى الراسبة فى أعماقه بجذور الحياة النابضة التى تتجدد كل يوم .. على أن الرافعى لم يلتق بالحبيبة « مى » — بعد القطيعة — الا فى المهرجان السنوى الذى أقامته جمعية الاحسان السورية فى طنطا ، ودعت اليه فيمن دعت ، هذه الأديبة المعروفة لتلقى خطبة فى المهرجان .. هنالك التقى الرافعى بها وجها لوجه ، ولم يتكلما بغير النظر ، ولم يطق هو البقاء فى الحفل ، فخرج كالهارب من أن تتجدد الصلة .. وكان هو اللقاء الأخير ، فلم يرها من بعـد ، وكم كان يهم بزيارتها ، ولكنه يعود ليقرر بينه وبين نفسه بأن الغنيمة فى البعد ، مكتفيا بالخيال والظلال والذكريات الراعشة المؤثرة .

الا انه كان يتسقط أخبـارها حتى عنـدما سافرت الى دمشـق للاستشفاء ، وطلب من صديقة له هناك أن تزورها وتمده بأخبارها وما يجد من أحوالها .. غير أنه يرحل قبلها الى العالم الآخر .. قبلها وقبل أن تعود هى الى مصر والا لكان له معها شأن آخر .

والرافعى فى كل تلك الفترة يتنقل — كعادته — فى حبه ..بل ان قلبه هو الذى يتنقل ليستوحى ويجدد الخواطر والأفكار . ان الحب اكسير الحياة .. وكان حب الرافعى نور يضىء أمامه الدروب ويشعشع بمعانى الفن والجمال والشعر .. ليكتب باحساس ، وينطلق فى جو المعرفة بروح الحياة .. بأرواح الطبيعة الأزلية التى تزدهر حوله فينتج ، ويبدع على الرغم من كل المنغصات والأسباب التى كانت تعترضه فى صحته أو حياته .

بين البداية والنهاية

اجتمعت فى شخصية الرافعى كل الصفات الانسانية للمسلم المؤمن المقيم على دينه وقوميته وبلاغة لغته التى أنزل بها القرآن بينات من الهدى الى الناس

وهو الأديب المثالى بحق ، المفكر ، والبحاثة المتمكن ، الشاعر والعالم ، الأديب الذى اتخذ له أسلوبا خاصا يكتب به .. أسلوبا جمع الفضائل الكتابية فى اللغة والخيال ، فى البيان والتشبيه .. الأسلوب الأدبى الذى التزم به ليبدع فى نطاق المعرفة والثقافة .

اشترك الرافعى — فى مطلع شبابه — فى انشاء « جماعة الثقافة الاسلامية » بمدينة طنطا التى لها جو دينى ملحوظ ، فأهلها أناس محافظون ، وفيها معهد دينى شبيه بالجامع الأزهر ، هو « الجامع الأحمدى » .. وقامت هذه الجماعة —وفيها من خيرة العلماء والأدباء— داعية الى الترابط الثقافى والقومى ، الا أنه لم يقدر لها أن تثبت وتبقى ، فانها كانت قد أقامت حفلا عاما دعت اليه الأدباء والنشء المهذب ، وحضر بعض مشايخ « الجامع الأحمدى » ومدرسيه . وكان ممن خطب فى هذا الاجتماع الكبير الأستاذ الرافعى ، وقد تناول فى كلامه بالنقد مشايخ الجامع الأحمدى لقعودهم عن أداء رسالتهم واهمالهم ما هو مفروض عليهم ، وقال فى خطبته : « ان أديبا كبيرا من وزراء الدولة قد قالها مرة منذ ثلاثين سنة : لو قعد حمارى فى الأزهر خمس عشرة سنة لخرج عالما ، وما نحب أن يقولها اليوم أحد ليلحد فى كفاية طائفة من أهل العلم والدين وهم أكرم علينا » .

وأثارت هذه العبارة جوا من الوجوم ثم الخصام ، وتعددت الادعاءات وتفرق أعضاء الجماعة ، فانحلت وأصبحت فى خبر كان .

ولعل أكثر ما يهم ذكره من الرسائل التى كان يرسلها للرافعى قراؤه .. تلك الرسائل التى كان يتلقاها من فتاة دمشقية طلبت منه أن يكون اسمها سرا ، وسمت نفسها « الصابرة » وكتبت له بكل شئون حياتها وما يحدث لها حتى تزوجت وأرادت زيارته مع زوجها ، ولكنه توفى قبل أن تؤدى له هذه الزيارة ، وقبل أن يستكمل عنها مقالته « الصابرة » التى كان يأمل أن تكون بحثا مستفيضا لبعض كتاباته ، فبقيت أثرا بعد عين .

وهنالك الرسائل الشخصية التى كان يرسلها الرافعى — خلال ربع قرن — الى صديق من أصدقائه الأوفياء هو الأستاذ محمود أبو رية الذى تعرف به منذ عام ١٩١٢م ، وكان يسكن فى المنصورة ، وتبلغ هذه الرسائل نحو ٣٥٠ رسالة ..

ويروى الأستاذ أبو رية أن رسائل الرافعى لم تنقطع عنه الا فى أواخر عام ١٩٣٤م بعد أن حدثت بينهما جفوة لم يوضح سببها لحرصه على الوفاء لصداقة الرافعى — كما يقول — وقد جمع معظم رسائل الرافعى اليه وأخرجها مطبوعة فى كتاب باسم « رسائل الرافعى » ،ويضم ٢١٨ رسالة فى نحو ٣٠٠ صفحة من الحجم الكبير ،[1] ويقول فى تقديمه له : « ولئن كانت الرسائل الخاصة بالعظماء والعلماء وأرباب القلم مما يحرص عليه المؤرخون لأنها هى التى تفصح عن دخائل نفوسهم وتميط اللثام عن حقيقة تاريخهم ، فان رسائل الرافعى تمتاز بأن فيها فوق ذلك منافع كثيرة لطلاب الأدب ورجاله بما حوت من آراء وفتاوى فى أغراض كثيرة من البلاغة واللغة والأدب والشعر ، وبما تضمنت من طرائق دراسة الأدب العربى عندنا وعند القدماء ، وما هى المصادر والنصوص التى يجب على الأديب أن يدرسها ويستوعبها ، وبما تحمل من آراء قيمة فى النقد الأدبى وسبب سقوط الأدب فى زماننا . وان دراسة اليوم لا وجود لها ، وأحكام صائبة على الكتاب والشعراء القدماء منهم والمعاصرين ، وقد

---

(١) ظهر هذا الكتاب عام ١٩٥٠ م . وهى السنة التى زرنا فيها مصر لاول مرة .

أظهرت هذه الرسائل الباعث على تأليف كل كتاب من كتبه وقوته فى التأليف والانشاء واجتهاده فى اللغة والنحو وما كان على نية اصداره من كتب ورسائل وفيها رسائل كثيرة جهزت بأضواء من أسرار الاعجاز فى كثير من آيات القرآن الكريم .

وقد حسرت اللثام عن وجه الحقيقة فيما اختلف الناس فى أمر عواطفه وحبه لجمال النساء ، ذلك الحب الذى نشأ فى صدر حياته فى المنصورة ثم فى الشام وفى القاهرة ، وان كتابه « حديث القمر » قد وضع فى فتاة أحبها بالشام وان لفظ القمر تورية ، وان حبه للآنسة « مى » كان حبا عميقا بلغ شغاف قلبه فانه لم يكن حبا ماديا يصل جسما بجسم ، وانما كان حبا روحانيا يتصل به روح بروح ، ليستوحى بخياله البعيد من بهائها آيات الحب العذرى ويستنزل من آفاقها معجزات البيان العربى ، وبحسبك أن ترى من آثار هذا الحب الذى بلغ درجة الهيام أنه قد انتهى ولم يبق منه الا ذكريات .. »

ووضع الأستاذ أبو رية بعد مقدمته للكتاب ، مقالة الأستاذ شكيب أرسلان فى تقريظه لمؤلف الرافعى « تاريخ آداب العرب » . ثم اختتم الأستاذ أبو رية الكتاب بكلمته التى نشرت فى جريدة المقطم يوم ٢٢ مايو ١٩٣٧ بمناسبة وفاة فقيد العربية الأستاذ الرافعى ، وفيها يقول :

« كان الفقيد الكريم فى الأدب العربى مدرسة هو أستاذها ، وكان فى الأخلاق الكريمة والتمسك بآداب الاسلام أمة وحده ، وكان رحمه الله لا يعنيه شيء فى الحياة الا أن يرفع من شأن اللغة العربية ويبعث تراثها ، وينشر مجدها ، وأن يحيى الآداب الاسلامية الكريمة حتى يدرس هذا الجيل لغتهم صحيحة ويأخذوا بالآداب القومية والعادات الصالحة ، ولما قامت فتنة التجديد والمجددين منذ أكثر من ربع قرن لم يثبت لمدافعتها غيره ، وظلَ وحده يناضل ويصول حتى كتب له النصر ، وما كانت هذه الفتنة لاصلاح يراد بالناس ، ولكنها كانت بدعا من التحذلق انبعثت عن قصور باع من أثاروها من الالمام باللغة العربية وعجزهم عن معاناة

درسها . وكذلك ظل رابضا متحفزا يحمى ذمار اللغة العربية ويذود عن حوضها ويرد العوادى عنها . » .

انها رسالة الأديب الكبرى فى محيطها العالمى .. انها أمانة الفنان فى الحياة وقد أداها الرافعى على الوجه الأكمل .

فى رسائل الرافعى تلك للاستاذ أبى رية ، فقرات تبين من شكواه مما كان يعترضه — كغيره من البشر — من آلام جسمانية ومن متاعب الحياة ومن الارهاق الذهنى فى أعماله الفكرية الضخمة .. تلك الفقرات كانت المرجع الرئيسى لما جاء فى كتاب ظهر سنة ١٩٥٣م باسم « دراسة فى أدب الرافعى» لكاتبة أسرفت فى تهجمها علي الرافعى . لقد استرسلت تنقد الرافعى وفكره وبعض ألوان أدبه بطريقة لا يقرها عليها أديب أو ناقد نزيه .

وهذا الرجل الفذ .. الرافعى الانسان المؤمن .. هذا الذى لا يرضى للمرأة بتقاليد الانحدار والتبرج ، والذى وقف حياته لتبصير الناس بأسرار لغتهم واعجاز قرآنهم وآدابهم وسمو تقاليدهم وقوميتهم وأخلاقهم الشرقية البريئة . هذا الفنان المكافح والأديب المبدع ، له فضائل كبرى علينا وعلى التاريخ ، وحقيق بنا أن نمجده ونترحم عليه.. ويقوم دارسوه بواجب الأمانة والاخلاص نحوه . ويعمل المسئولون على تكريم ذكراه ، فأمثاله ولا شك قليلون .

ان الرافعى سيبقى بانتاجه العظيم .. وبايمانه وأسلوبه الفريد .. علما راسخا من أعلام اللغة والأدب والدين فى التاريخ العربى المزهر ..

وقوة ايمان الرافعى بالروحية جعلته عظيم الثقة بالغيب ومناجاة الأرواح ، كما جعلت عنده استعدادا لتلقى الهاتف الروحى والايحاء النفسى .. فكثيرا ما ألهم بأمور يتخيلها باحساسه المرهف ورقة مشاعره فاذا هى حوادث واقعة ، ومنها هذه الحادثة التى يرويها الأستاذ سعيد العريان فيقول :

« ... وسألنى مرة أخرى : ماذا تعرف عن صديقنا م ؟ قلت : لا جديد من أخباره . قال : يهتف بى الساعة هاتف انه فى شر .. وفى صباح

اليوم التالى كان نبأ شروعه فى الانتحار منشـــورا فى الصـــحف . وفى الرسائل التى تبادلاها بعد هذه الحادثة ما يبعد الظن بأن الرافعى كان يعلم شيئا » .

وترجع الصداقة بين سعيد العريان والرافعى الى خريف عام ١٩٣٢م عندما تعرف عليه شخصيا ، فأحبه ولازمه حتى انه كان يقضى الوقت الطويل فى مكتبة الرافعى . وهذا يملى عليه بعض مقالاته .. ودامت هذه الصداقة الى ما قبل موت الرافعى بنحو نصف عام .. وفى هذا يقـــول الأستاذ سعيد العريان :

« كان بيننا مغاضبة باعدت بينى وبينه بضعة أشهر بعد فراغى من اخراج الطبعة الأولى لكتاب « وحى القلم » آخر كتبه ، وقد أنكر منى — رحمه الله — أن أجفوه ، وشكانى الى الصديقين الكريمين أحمد حسن الزيات وتوفيق الحكيم ، ثم لم يقدر لنا أن نلتقى بعد الخصام حتى بغتة الموت » .

وعندما هم القدر بالوصول الى الصفحة الأخيرة من حياة الرافعى الدنيا كان هو كما تعود ، قد قام فى الفجر من يوم الاثنين العاشر من شهر مايو عام ١٩٣٧م ، وهنا أترك الوصف فيما نحن بصـــدده ، الى الأستاذ سعيد العريان فيروى لنا الخبر كما كان واقعا اذ يقول :

« واستيقظ مع الفجر على عادته كلّ يوم فتوضأ وصلى ، وجلس فى مصلاه يسبح ويدعو ويتلو قرآن الفجر . وأحس بعد لحظة حراقا فى معدته ، فتناول دواء وعاد الى مصلاه وصـــحا ولده الدكتور محمـــد لموعده ، فشكا اليه ما يجد فى معدته ، وما كان الا شيئا مما يعتاده ويعتاده الناس كثيرا من حموضة فى المعدة ، فأعطاه ولده شيئا من دواء وأشار عليه أن ينام ، ثم لبس محمد ثيابه ومضى ليدرك القطار الأول الى القاهرة كعادته كل يوم ، ومضت ساعة ثم نهض الرافعى من فراشه لا يحس ألما ولا يشكو وجعا وما به علة ، فأخذ طريقه الى الحمام ، فلما كان فى البهو سمع أهل الدار سقطة عنيفـــة أحدثت صـــوتا شديدا فهبوا مذعورين ليجدوا الرافعى جسدا بلا روح .. قال الدكتور محمـــد : ولما وجدت

البرقية تنتظرنى فى محطة القاهرة وليس فيها سبب يدعونى اليه ، تحيرت حيرة شديدة ، بلى .. قد أيقنت أن شيئا حدث وان كارثة وقعت ، ولكن لم يخطر فى بالى قط أنه أبى .. لقد تركته منذ ساعتين سليما معافى قوى القلب أقوى ما يكون قلب رجل فى سنه .. كل المفاجآت المروعة قد خطرت فى بالى الا هذا الخاطر ، ولكن .. ولكن الذى مات كان أبى .

« يا صديقى لك العزاء ولى ، أحسبت أن الرافعى سيموت فى فراشه وهو قد نذر أن يموت فى الجهاد وفى يده الراية ينافح بها الشرك والضلال ويدعو الى الله « ويواصل حملة التطهير » .. طبت نفسا يا مصطفى .. لكم كنت تخشى الهرم والمرض والزمانة ولزوم الفراش وثقل الأيام التى تعد من الحياة وما هى من الحياة ، فأى كرامة نلت ؟ وأى مجاز جزت ؟ وهل رأيت الطريق بين الحياتين الا ما كنت تريد ؟ وهل كانت الا خفقة نفس نقلتك من ملأ الى ملا أرحب فى كنف الخلد وفى ظلال الجنة ؟ يرحمك الله يا صديقى ، ويرحمنا » .

* * *

ورقد الجدث الفانى فى مقبرة آل الرافعى بطنطا — الى جوار الأبوين العظيمين — حيث السكون والراحة الأبدية . مات العبقرى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى وخلف أرملته وعشرة من البنين : ستة ذكور وأربع اناث .

مات « امام الأدب وحجة العرب » كما دعاه أمير البيان الأستاذ شكيب أرسلان ، ومضى العام ولم يقم الأدباء حفل التأبين الذى كانوا يعتزمون اقامته ثم يفشلون ويؤجلونه الى موعد آخر .

مات الرافعى بجسده ولكنه عاش وسيظل حيا بتراثه وفنونه ما بقيت الحياة وتعاقبت الأجيال .

القسم الثاني

الآنسة ميّ

ماري زيادة

١٨٨٦- ١٩٤١

لمحة تاريخية

ولدت الآنسة « مى » — مارى زيادة — فى الحادى عشر من شهر فبراير عام ١٨٨٦ بمدينة الناصرة بفلسطين ، المدينة التى أمضى فيها النبى عيسى بن مريم عليه السلام أكثر أيام حياته .

وأمها فلسطينية من الجليل تدعى « نزهة معمر » وهى مثقفة وتحفظ الكثير من الشعر .. وقد جاءت بأخ لمى ، ولكنه توفى طفلا ، واستأثرت « مى » بكل عواطف أبويها .. وأبوها هو الأستاذ الياس زيادة ، لبنانى كان يشتغل بالتدريس فى معاهد الناصرة حتى عام ١٩٠٤م .

أدخلت « مى » الطفلة — وهى فى السادسة — مدرسة «الراهبات اليوسفيات » تتلقى مبادىء التعليم . وفى عام ١٨٩٩م أرسلت الى «عين طورة » بلبنان حيت تدرس فى « مدرسة الزيارة » باللغة الفرنسية مع قليل من العربية الى عام ١٩٠٤ عندما انتقل والداها الى لبنان فى قضاء كروان ، وانتقلت هى الى مدرسة « الراهبات العذريات » ببيروت .. ومن يومها عرف عنها الذكاء والقدرة على الانشاء الجيد فى الفرنسية ، وكان يسند اليها الدور الأول فى التمثيليات التى تقوم بها جمعية التمثيل بالمدرسة فى فترات متقاربة .

ومى ، مسيحية ، لبنانية الأصل من أبوين مختلفين فى المذهب ، فالأب مارونى والأم أرثوذكسية .. وتصرح مى بأنها لم تتعصب لأحد من المذهبين ، فتفكيرها الواسع لا ينظر الى هذا الخلاف المذهبى كفارق ينقض ما بينهما .

وعندما أتمت دراستها الأولى لمع اسمها كخطيبة أديبة ، تجيد عدة لغات .. وكان أكثر ما تكتب بالفرنسية حتى انها نظمت بها وظهر لهما

ديوان « أزاهير حلم » بهذه اللغة عام ١٩١١ باسم مستعار هو « ايزيس كوبيا » .

فى عام ١٩٠٨ سافرت « مى » وهى فى الثانية والعشرين من عمرها مع أبويها الى مصر بقصد الهجرة ، وسعت مع أبيها لكسب الرزق وكانت شهرتها قد سبقتها ، ومكانة أبيها فى المجال الصحفى تزداد رفعة، فاتخذها الثرى المعروف ادريس (بك) راغب معلمة لأولاده .. وكان أن توطدت بينه وبين أبيها صداقة مخلصة مما جعلته يتنازل له عن مطبعة وجريدة « المحروسة » التى كان قد أنشأها الأستاذ سليم النقاش وباعها للسيد عزيز الزند ..

وهكذا تيسرت للأسرة المهاجرة وسيلة العيش باطمئنان كبير .. وواصلت « مى » تكتب — فيما بعد — مقالاتها الرائعة بالعربية للصحف ، ومسرحها جريدة والدها « المحروسة » وجريدة « الزهور » التى كان يصدرها الأستاذ أنطون الجميل ، ومجلة المقتطف والمقطم .. وغيرها [1] . وقد اختارت الآنسة الأديبة لنفسها اسم «مى» (مختصرا من اسمها « مارى زيادة ») توقع به كل ما تكتب حتى عرفت واشتهرت به .. وأول ما نشرت تحت هذا الاسم فى جريدة المحروسة ، سلسلة أدبية دعتها « يوميات فتاة » تتحدث فيها عن النهضة النسائية وما يجب على المرأة الشرقية أن تمارسه ضمن رسالتها المنزلية الأولى التى تعتبرها « مى » هى ميدان حواء الأول ومجالها الحصين .

أخذت « مى » تتحول الى كنوز الأدب العربى وتتعشق روحها أسرار الشرق وعظمته ، واذا بها تنصرف عن الكتابة كلية بأية لغة أجنبية ، وراحت تترجم روائع القصص الانجليزية والفرنسية والألمانية الى اللغة العربية الفصحى ببيان قوى وخيال واسع .

فى صيف عام ١٩١١م زارت لبنان ، فكرمها الأدباء والوجهاء وأقاموا حفل « الكوخ الأخضر » بضهور الشوير لتكريم الفتاة اللبنانية فى شخص « مى » حيث ألقت خطبة رائعة سحرت الحاضرين .. ثم زارت

---

(١) سيأتى فيما بعد سبب لهذه التسمية .

لبنان للمرة الثانية عام ١٩١٣م واشتركت فى حفل عيد الميلاد ، وألقت فيها خطبتها « عيد العذراء » .

وفى عام ١٩١٤ التحقت « مى » بالجامعـــة المصرية تدرس علوم الفلسفة العربية والتاريخ الاسلامى ، وتتزود منها المعرفة والثقافة العالية، ومما تعنى بدراسته على نفسها .. حتى انها أصبحت تبدع فى كل ما تكتب وتجتذب اليها الأدباء .. فكانت أول امرأة تفتتح ندوة أدبية فى مصر يجتمع فيها كبار رجال الأدب والفن والأعيان مما سنعرفه فى الفصل التالى .

وظلت « مى » على نهجها — طوال حياتها — هى الشرقية المحافظة الداعية الى تنوير الفتاة وتهذيبها ، لتفهم حقيقة رسالتها وتتحاشى خداع المدنية الضالة وأساليبها المجرمة فى تحرير المرأة واهانة عزتها القوميـــة وحصانتها النسوية .

لقد فهمت « مى » — وهى المفكرة الواعية — كيف انهـــارت كرامة حواء ، وتطوح تاج حصانتها فى البلدان التى جرف فيها تيـــار التحرر ما بقى من آثار الأخلاق والبراءة والروحية .. ثم كانت الأنثى هى الضحية ، ولا تزال ضحية كل جيل مادام هذا الجيل لا تثبت فيـــه أديبات فاضلات كالآنسة « مى » التى تناجى « الشرق » — الوطن — بهذه العبارات القوية الهادفة ، فتقول :

« أيها الشرق ، يا شرق الطرب والحميا والنخوة والشدة العاصفة ... انك لتتجمع تحت نظرى كلوحة مصورة فأرى فيك الفقر والجهـــل والاضطراب والاحتدام والانفعال ..•ليس فيك فيض الثروة ومعجزات الحضارة ، وبرغم ذلك فأملى بك عظيم كالحياة والحرية .. أى قوة هذه التى تشد وثاقى اليك ؟ لماذا أهوى من لغتك الشدو الشجى والنواح والنبرة السريعة الحادة والهتاف الأبى الحار ؟ ألا نظرة الى هذه السماء المخيمة عليك ببهاء العسجد واللجين والأرجوان . انها الجو الوحيد الذى أظل الرسل ، وما رضيت أن تنزل فى غير هوائه النبوات .. ها قد جاء وقت النهوض رغم النوائب والمثبطات .. فالى النهوض » .

كفاحها الفكرى وصالون يوم الثلاثاء

عكفت «مى» على تحبير الموضوعات الشائقة وترجمة مختارات من الأدب الغربى العالمى، وصدور الجرائد مفتوحة لقلمها، والأدباء يرفرفون حولها كفراشات الحقل تتهاوى دائما على الأزاهير ..

وفى مساء كل يوم ثلاثاء تنعقد فى منزلها ندوة أدبية يحضرها الأدباء وبعض رجال الصحافة .. ونذكر منهم على سبيل المثال الأساتذة خليل مطران وأنطون الجميل والدكتور يعقوب صروف والدكتور زكى مبارك واسماعيل صبرى والدكتور الياس فياض ومصطفى عبد الرازق ولطفى السيد .. وغيرهم وغيرهم .

هذه الصفوة المختارة من الأدباء والمفكرين تلتف حول « مى » فى مجلسها المثالى وترى فيه جامعا للشمل .. يأتى اليه كل أديب يفتقد زميله ويود لقياه ، يتباحثون فى شئونهم الأدبية ويناقشون كل موضوع يشتغل به الرأى العام فى شئون السياسية أو العيش أو فى غيرهما .

وعندما تتحدث « مى » تتجه اليها الأنظار والأسماع ، وتسبح الخواطر فى تخيلات جميلة ، بينما العبارات الرقيقة الناعمة تتدفق فى رفق .. وفى لهجة قوية أحيانا ، من بين الشفتين الورديتين ، وتبتسم « مى » فترقص كل الأفئدة التى تجمعت حولها ، وقد توفرت المعانى الجميلة والشاعرية حيث اجتمع الأدب والذوق والجمال والخيال .. وهذا هو الجو الحالم الطليق الذى يبحث عنه الأدباء ويتوقون الى ظلاله ، وقد وجدوه متمثلا فى صالون « مى » الضخم المتواضع ، وهى فيه المثل الرائع للتفنن الأدبى والحسن الطهور والخلق السامى .

وفى أوائل عهدها بافتتاحه سجل معها الأديب الشاب — يومها — الأستاذ سلامة موسى — فى أغسطس سنة ١٩١٤م — حديثا قيما كان قد استهل به جهوده الصحفية عندما بدأ فى اصدار مجلته « المستقبل » — وقد أنشأها بعد عودته من دراسته بلندن — ، وبها افتتح حياته الأدبية [١] .

وها هو ذا سلامة موسى يتحدث ، وقد جاء الى منزل «مى» وجلس ينتظر مقدمها فى الصالون البديع . قال :

« يحبها الجمهور للنفس النسائى فى كتاباتها كأنها تكتب عفوا وغريزة من غير تكلف ، تعبر عن طبيعتها النسائية لا تكذبها ولو مرة واحدة . وهى أبدا تنتزعنا من المادية التى تحوطنا الى المثل الأعلى .. مثلها الأعلى الخاص ، من ميل للجمال ، الى آناقة ، الى ذوق نسائى .. لم أمكث طويلا فى غرفة الاستقبال من مسكنها الرحب فى شارع المغربى حتى دخلت مرحبة ، ومادمت لم أحصل على صورتها للآن فانى فى حل من وصفها بهذا القلم العاجز : فهى ربعة مستديرة الوجه ، زجاء الحاجبين وطفاء الأهداب ، دعجاء العينين ، يتألق الذكاء فى بريقهما .. يجلل وجهها الجميل شعر جثل أسحم ، وتلعب أبدا على شفتيها ابتسامة الخفر .. ولعل زجج حواجبها ، ووطف أهدابها ، أعلق الأشياء بذاكرة من يراها . وعلى الرغم من سعة اطلاعها واستنارتها لا تزال أبعد النساء عن الاسترجال وأشدهن أنثوية .. كثيرة التواضع والاستكانة .. قلت بعد أن شربت القهوة والشربات وبعد أن تبادلنا كلمات المؤانسة العرفية :

« من هو أحب الكتاب عندك ؟ »

« قالت : أحبهم لدى أحدثهم قراءة عندى كما يقول لامارتين ، ولكنى مع ذلك أحب شعر كيتس وشيلى الانجليزيين ، وأحب نثر ميلتون ورسكين . أما من المفكرين فهو صاحبكم برنارد شو ، ولكنى أكره تطرفه

---

(١) توفى عام ١٩٥٨ م وخلف ثروة فكرية للمكتبة العربية .

وتماديه عندما يحلو له التمادى ويندفع بلا قيد كأنما يريد اظهار براعته وحذقه .

« قلت : ونيتشه ؟. قالت : لا .. انى أخافه وأظنه مجنونا ومن هنا شدة غموضه . قلت : ما رأيك فى الأدب العربى الحاضر ؟

« قالت : مادى فى أغراضه ، قلما تجده يتبع المثل الأعلى .. انظر الى مجلاتنا — وهى عنوان أدبنا الحاضر — تجد أنها مرصدة للمواضيع المادية المحضة كالهلال والمقتطف .. ولا غرابة فى ذلك فوسطنا يقضى هذه الحال ، وعندما نرتقى نتحرر من ربقة المادية الى المثل الأعلى. فنحن لا نزال فى طور العناية بالحاجات لم نفكر بالكماليات بعد .

« قلت : هل ثمة فرق بين الأدب المصرى والأدب السورى ؟

قالت : يمتاز المصرى على السورى بفخامة الألفاظ وخفة التعبير فى الأسلوب ، أما فى الفكر فالمصرى أبدا متسم بالانسياب والاستطراد أما السورى فيفكر فى موضوعه رأسا ومباشرة . ولكل من الطريقتين مزية .

« قلت : كيف يجب أن تربى المرأة المصرية ؟

قالت : يجب أن نربيها على أن تفكر .. لقد ظهرت حديثا جمعيتان الغرض منهما تربية المرأة ولكنهما فشلتا لأنهما اعتمدتا على المحاضرات . محاضرة كل شهر أو نصف شهر .. لا ، انا نريد جمعيات مناقشة تجتمع فيها النساء للمناقشة فيضطررن بذلك الى التفكير .. نعم . المناقشة تعلم المرأة التفكير وتعلمها كيف تحادث الرجل فى المواضيع الجدية .. المرأة السورية أرقى نساء العالم العربى الآن ، ومع ذلك فلا يستطيع رجل الجلوس معها والكلام فى شأن من الشئون المهمة ، سياسية كانت أو اجتماعية ، بل جل ما يكون الحديث ان لم يكن مداعبة فمن الملابس والأزياء .. ثم أذكر أن تعود المرأة التفكير والمناقشة يؤدى الى تربية الرجل . فرجالنا لا يجتمعون الا بالرجال للحديث .. وهذا نقص فى

جمعيتنا الحاضرة ، لأن التربية الحديثة تتطلب وجود المرأة مع الرجل فى مجتمعاته تهذب لغته وآدابه وحديثه » .

« قلت : وماذا يجب تعليمها ؟

« قالت : أولا فن ارضاء الرجل ولا أقصد بذلك ارضاءه من الوجهة الجنسية ، فالمرأة الشرقية أبرع النساء فى هذا الفن .. ولكننى أريد ارضاءه من الوجهة العملية والروحانية . أى يجب أن تهيىء وسائل الراحة فى البيت ، وأن ترقى بفكرها الى مستواه ليستأنس بها ولا يهجرها الى البارات والقهوات .. ثم يجب ثانيا تعليمها تدبير المنزل وتربية البنين ، ويجب ثالثا أن نعلم المرأة المتوسطة والغنية كيف تكون امرأة صالون محدثة أنيسة .. انى أكره المرأة المسترجلة وأعتقد أن وظيفة المرأة الحقيقية أن تكون أما وزوجة .. لا بأس من أن تفنى شيئا من شخصيتها فى مصلحة العيلة فهى مقدسة » (١) .

ونشر هذا الحديث فى مجلة «المستقبل» وعرف من لم يعرف آراء الأديبة المفكرة الجميلة ونظرتها التقدمية نحو المثل العليا فى تربية النصف الثانى الرقيق الذى توليه كثيرا من عنايتها واهتمامها .. وتزايد رواد مجلس الثلاثاء الذى أصبح له شأنه الكبير فى الوسط الأدبى وبلغ مداه الى أبعد من مصر ، وتمنى الأدباء البعيدون لو تتاح لهم الفرص لارتياده والاستمداد من المعين الذى لا ينفد من الخواطر الأدبية والروح الشاعرية والخيال البديع .. وقد أصبح يأتى اليه ويلازمه بعضهم غير من ذكرنا آنفا من الأدباء الاساتذة : شبلى شميل وطه حسين وعباس محمود العقاد وأمين الريحانى وابراهيم عبد القادر المازنى ومصطفى صادق الرافعى وجميل الزهاوى وولى الدين يكن وجرجى زيدان وداود بركات ، وغيرهم من المثقفين والوافدين على مصر من الزوار الأدباء .. فكان منزل «مى» منتدى خاصا يلتقى فيه رجال الفكر والاعلام ورواد الأدب والعلم ، وفيهم أساتذتها وزملاؤها ومن تفاخر وتعتز بهم .

---

(١) هذا رأى خاص بها وليس حكما يؤخذ عليه « المؤلف »

كان الكل ينشد المتعة الفنية من كل وجوهها الحلوة الرضية فى النقاش الأدبى وفى جلسة الصفاء الهادئة هذه .. وفى مرأى الجمال المشرق .. يتضوع من هيكل حواء المهذبة المثقفة النبيلة وهى تدير الصالون البهى بلباقة ولطف وفن تتجلى فيه الروح الانسانية العالية فى جو يسوده الاخاء ويغمره الولاء بل والاعجاب المتبادل .

وقد يعن لأديب أن يفصح عن مشاعره ويتغزل فى الأديبة الجميلة فلا يمنعه حجاب ، وتتقبل « مى » هذا الغزل الصريح بنفس الروح التى تحادث بها وتتجاوب مع محدثها ورواد مجلسها الوحيد من نوعه فى ذلك الوقت وان كان الخفر يبدو واضحا على محياها وتزداد حمرة خديها وهى تتمتم بعبارات الشكر .

وتخبرنا « مى » عن التأثير القوى فى نفسها لدراستها وألوان مختاراتها فتقول بهذه الروح المؤمنة والفكر المتفتح النابض .

« ان أهم ما أثر فى مجرى حياتى الكتابية ثلاثة أشياء : أولها النظر الى جمال الطبيعة ، وثانيها القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته الرائعة ، وثالثها الحركة الوطنية التى لولاها لما بلغت هذه السرعة فى التطور الفكرى » .

ولذلك فقد كانت « مى » فورة نشاط ذهنى أعجب به الكثيرون ، وغدت أمهات الصحف والمجلات ميدانا لقلمها العبقرى ونفثاته النقدية والأدبية والشاعرية .. ومعظم كتاباتها تسيطر عليها هذه الروح الشعرية الرفافة .. وكان الكثيرون يقرأون لها أيضا فى المقتطف والهلال والمقطم والأهرام ، وفى غيرها ..

وفى عام ١٩٢٦م كان قد انقضت خمسون عاما على انشاء مجلة المقتطف ، فاحتفى الأدباء بهذه المناسبة وعلى رأسهم « مى » .. وقد اختيرت أمينة سر للجنة .. وفى منزلها — وبدعوة منها — حضر أكثر من ثلاثين أديبا وكاتبا ووزيرا ، حيث تشاوروا فى طريقة اقامة الحفل واعداد برنامجه .. وكانت هى الوحيدة التى ظهرت مع خطباء الحفلة وشعرائها

وأعضاء اللجنة المؤلفة برياسة (صاحب المعالى) محمد توفيق رفعت ، وعضوية كل من السكرتيرة الآنسة « مى » والأساتذة سعيد الشقير وأحمد شوقى وطه حسين ومحمد حسين هيكل ولطفى السيد ومصطفى عبد الرازق وعباس محمود العقاد ومحمد رشيد رضا وابراهيم المازنى وأنطون الجميل وأمير بقطر ونقولا حداد ومحمد صادق عنبر وجبرائيل انكيرى وسامى جريدينى وادجار جلاد وشارل استانبولية .

وقد قامت « مى » فيما بعد بالاشراف على جمع كل ماقيل فى حفلة التكريم وما وصل الى اللجنة من رسائل وقصائد ، ورتبته فى « الكتاب الذهبى » الذى أصدره يومها المقتطف بتقدير لجهود الأديبة المشرفة عليه .

وهذه هى « مى » الأديبة الأصيلة .. تتبادل الرأى والعون مع الأدباء والمسئولين فى دور الصحافة ، كما تتبادل مع بعضهم الرسائل — القاصى والقريب — وكلهم مغتبطون معجبون بمواهبها .. وتعتبر رسائلها للادباء ثروة فكرية طيبة ، ويقول عنها العقاد : « هذه الرسائل لها شأن عظيم لأنها لو جمعت وطبعت لكانت تحفة أدبية رائعة » . وقد طبع جزء منها فى كتاب صدر عن دار بيروت باسم « رسائل مى » فى عام ١٩٥٢م .

وتجيد « مى » ثمانى لغات حية عدا العربية .. وهى واسعة الاطلاع على الأدب الغربى الذى نشأت فيه ثقافتها وتكونت منه فتأثرت به .. وأهم هذه اللغات هى « الانجليزية والايطالية والفرنسية والألمانية والافريقية الحديثة » .

ولكن « مى » — كما ذكرنا — ما كادت تدرس علوم اللغة العربية وفلسفتها وتاريخها حتى انصرفت عن الكتابة والتأليف بأية لغة غير العربية الصميمة — وقد أصبحت تفاخر بها — فهى النابغة من بلادها الحبيبة حيث الروحانية والجلال وبساطة العيش ووداعة الحياة وروعتها.

مؤلفـــاتها

بدأت « مى » الأديبة خطيبة داعية حافزة الى النشاط النسوى ، وأخص ما تتناول الكتابة فيه ، المشاكل الاجتماعية والشئون الحياتية مع الفن الأدبى .. وظلت هذه النزعة الاصلاحية والأسلوب الأدبى فى كل كتاباتها — فيما بعد — من مقالات أو دراسات أو خواطر .

فى عام ١٩١٠ م و « مى » بعد فتاة فى نحو السادسة والعشرين من عمرها — أخرجت أول مؤلف لها هو ديوان :

« أزاهير حلم »

نظمته بالفرنسية وأبدعت فى تخيلاتها وعبرت بصدق عن مشاعرها الوليدة .. ودل هذا الديوان على مدى ذكائها ونبوغها المبكر ، وانها لا شك قد نظمت بعضه من سنوات قبل أن يصدر — الشىء الذى يدعو الى الاعجاب ثم التفاؤل بمستقبل هذه الأديبة الواعية ، وقد كتب عنه الشاعر خليل مطران فى جـريدة « الأخبار » كلمة تقريظ للشاعرة الوليدة قال فيها : « أجدها وراء الشعرية تعمل أصابعها فى الشبك الحاجب لتفتح لها فيه منظرا أفســح منه وترى . وأن ترى جائز عنــدها أو مستحسن ، بل يستشف من بعض شــكاياتها أنها تذهب الى أبعــد من هذه الأمنية الى البروز فى ميدان العمل والمناضلة وطلب المجد والنصر » .

وكتبت عن هذا الديوان أيضا جريدة « السلام » كلمة أخرى تقول فيها : « .. كنا نظن أن الانسان اذا أتقن لغة لا سيما لغة آبائه فقلما يجيد لغة أخرى لا سيما لغة ليست منأخوات لغته الوطنية ، فاذا بالآنسة « مى » قد أظهرت ما فى هذا الظن من الوهم والوهن . أول ما بدأت به من تقييد

نفثات قلمها السيال كتيب بديع النسج فرنسى العبارة سمته « أزاهير حلم » وقد حبكت درره ولآلئه حينما كانت تلميذة صغيرة وأتمت مابقى منه فى الشهور الأولى بعد عودتها الى بيت والدها حيث لم تنقطع عن متابعة دروسها » .

وقد قام الأستاذ أمين الريحانى — فيما بعد — بترجمة ديوانها الى العربية بأسلوب قوى جميل .

وبعد أن استقر المقام بمى مع والديها بمصر ، ونشرت الصحف والمجلات مقالاتها وخطبها — راحت تقدم أيضا لونا آخر من الأدب المترجم .. فترجمت عن الفرنسية رواية : « رجوع الموجة » ونشرتها تباعا فى جريدة « المحروسة » ، ثم طبعت الرواية فى كتاب عام ١٩٢٠م ، وهى قصة اجتماعية انسانية معبرة .

وترجمت « مى » عن الانجليزية رواية تاريخية باسم : « الحب فى العذاب » نشرت أيضا مسلسلة فى احدى الصحف ، ثم طبعت فى كتاب عام ١٩٢١م واختتمت « مى » ترجماتها بتصرف عن الألمانية لرائعة « فردريخ مكس مولر » : « الحب الألمانى » . ودعته هى : «ابتسامات ودموع » ، وهو من النثر الشعرى الرائع .. وكانت «مى» قد تصرفت فى ترجمته الأولى ، لأنها كانت مبتدئة فى تعليمها اللغة الألمانية .. ولكنها عادت وترجمته مرة ثانية متقيدة بالأصل فى التعبير والمعانى ، محاولة ابرازه الى العربية « بصيغته الشعرية البسيطة خاليا من الاستعارة الغربية والتنميق الشرقى » — كما تقول مقدمتها للطبعة الثانية التى صدرت عام ١٩٢١م — وتقول فيها أيضا تشرح السبب الذى حدا بها لتسمية الكتاب « ابتسامات ودموع » .

« الحب الالمانى ؟ كلا ليس هذا الكتاب حيا المانيا فقط ، بل خلاصة بسمات الانسان وعبراته ، فسميته « ابتسامات ودموع » . بل فان ذلك تزيينا لفكرة المؤلف الواجب احترامها على كل مترجم . فهو صادق من حيث اقتناعى الخاص أمين للصورة التى ارتسمت فى نفسى » .

ويعد هذا الكتاب أروع ما ترجمت « مى » للشاعرية التى امتزجت بنفسها منه وللاحساس الحزين الذى تجاوبت معه فيه .. وتقول «مى» فى المقدمة أيضا :

« .. نعم هأنذا فى ضهور الشوير بلبنان ذلك المصيف الهنىء .. نحن فى صميم القيظ وقد تقاطر المصطافون حتى ضاقت بهم المنازل والفنادق والجماعات التى تباينت أفرادها علما وتهذيبا وارتقاء . وتنافرت عادات ومشارب واطماعا ، هى تعيش تحت سقف واحد وتتبع فى أمور جمة نظاما فردا وضع لضيوف المنزل جميعا .. ومن هذا الاجتماع بالغرباء ومحازاتهم أياما وأسابيع وشهورا . والجلوس واياهم حول مائدة واحدة مرة بعد مرة . وحدة تنشأ وتثبت بالتكرار ؟ فضلا عن خبرة موفورة لدرس أخلاق الناس وتمرين ميسور فى أساليب المعاملة والارضاء . بيد انى بين الأحاديث المسلية والضحك والائتناس أظل شاعرة بفراغ واسع ، أظل متسائلة ماذا يعرف أولئك المتنادمون المتسامرون المغتابون — من بعضهم بعضا — .. أظل تائقة الى الوحدة والاختلاء تحت أشجار الحرج الصغير . لذلك سعيت فى أن ُيبنى لى هذا الكوخ الضيق من خشب الغصون ويسقف بالأعشاب اليابسة وليس فى داخله من حطام الدنيا سوى مقعد وطاولة نضدت عليها كتب قليلة ،وانما دعى كوخى « الكوخ الأخضر » لأنى جللت جدرانه من الداخل بنسيج أخضر عدا أفنان مخضوضبة حنت عليه وخضرة غضة أحدقت به من كل جانب ؟ هنا تعرفت بمكس مولر وبكتابه الجميل .. تعرفت به فى الخلوة لأن الأرواح الكبيرة تنكمش فى المحافل العادية ولا تتجلى الا فى العزلة لمن كان على استعداد لتلقى فيض بهائها » .

ولما كان هذا الكتاب من الجودة الشاعرية بمكان فاننى أنقل منه . اتماما للفائدة — هذا الفصل القصير فى المناجاة ، والموسوم « الحياة الدفينة » لنرى روعة أداء المؤلف وفن المترجمة الجميل معا :

«النور يعلو ويغمر حروبنا الكلامية—انظرى ها ان عينى تراودها الدموع وأشعر بكآبة مبهمة تلتفت حولى وتتمدد . أجل نحن نعلم أننا

نستطيع ان نمرح ونعلم ، نعلم أننا نستطيع أن نبتسم . ولكن فى مهجتى حرقة لاتلطفها كلماتك الرقيقة ، ولاتسكنها منك البسمات .. اعطينى يدى واصمتى قليلا . ولتستقر على عينى نظرة عينيك الصافيتين لأقرأ فيهما يا محبوبتى آيات روحك .. أواه .. هل يقصر الغرام دون فتح فؤادك واستماع صوتك ؟ هل يخطر على المتيمين اظهار ماتكن قلوبهم ؟ كنت أعرف الناس يضنون بافكارهم لئلا يتلقاها الآخرون ببرود وجفاء ، كنت أعلم أنهم يحيون ويتحركون مخدوعين خادعين ، متنكرين متسترين ، غرباء عن البشر ، غرباء عن ذواتهم ، انما القلب بعينه ينبض فى كل صدر بشرى . ولكن نحن يا محبوبتى ، أيسكت ذلك النهى الوهمى قلوبنا ؟ وأصواتنا ؟ — أيحب أن نخرس نحن أيضا ؟ آه . ما أسعدنا اذا حررنا قلبنا ولو لحظة ، وحللنا قيود الشفاه لأن السر الذى أطبقها وختم عليها تقدس فى أعماقنا !

القدَر الذى سبق فعلم كيف يكون الرجل طفلا وكيف يكون زهوقا ، وكيف تتقاذفه المطامع فيخوض ميادين الشقاق والنزاع حتى لتكاد تتحور شخصيته فلا يتمكن من وقاية النفس الطاهرة من تلاعب الأهواء وان أرغمها على الخضوع لناموس الكيان .. ذلك القدر هو الذى يأمر نهر الحياة فى صدرنا استطراد السير الى الامام ، فننسى حركة ذلك النهر الدفين وان لازمناه وهو يجتاز عرض البحار وكنا مثله مسوقين على الدوام ؟؟ ولكن كم من مرة فى ازدحام السبل ، وكم من مرة فى جلبة المصارعة وضوضاء التقاتل ، يتصاعد فينا الشوق فتنتبه لحياتنا الدفينة : ويتيقظ لدينا احتياج لصرف نار قوانا التى لا تعرف السكون ، ويضنينا توق الى البحث عن أسرار القلب النابض بعنف فى أعماقنا لنعرف من أين تأتى أفكارنا والى أين تقصد .. كثيرهم الذين يحفرون فى قلوبهم وينبشون ؟؟ لكن واأسفاه .. قلَّ من يشغل القلب وقل من يفعمه ويكفيه ! عاجنا الجم من شئون الحياة فأظهرنا فى كل فن حذقا ومهارة ، على أننا لم نكن كما نحن فى ذاتنا القصوى ولم نسر فى سبيلنا الواحدة سويعة ، ولم نفصح عن عاطفة من العواطف المتضاربة فى صدورنا ، — وباطلا حاولت أن تتكلم وتتحرك خلال تلك العواطف ذاتنا الخفية

الصادقة ، فكانت أقوالنا وأفعالنا بليغة وحسنة — ولكن غير صحيحة .. واذ يثقل الألم علينا وطأة الجهد ونسأل صغائر الحياة قدرتها المدهشة للوصول الى النسيان والسلوان فتلبى طلبنا اذ نلتجىء اليها ولكن رغم كل مغالبة وكل قهر تنهض ، الوقت بعد الوقت من عمق أعماق الكيان كما من أرض قصية مجهولة ، تنهض أصوات ملتبسة بائسة ، وتنشر أصداء طائفة سابحة فتملأ أيامنا كآبة وغما !

انما — وهذا نادر الحدوث — عندما نضم فى يدنا يدًا محبوبة ونقرأ بعينين يعذبهما دخان الساعات ولهيبها ، نقرأ بجلاء فى عينى شخص آخر ، وتداعب سمعنا الذى أصمه ضجيج العالم نبرات صوت عزيز — .. اذ ذاك تنشط الأنوار فى أرجاء جناننا وتضرب من جديد نبضات العاطفة الدفينة وتستقر لواحظنا فى محاجرها ، وينفتح القلب فنعنى ما نقول ، ونقف على مانود معرفته ، ويرقب الواحد منا فيض حياته ويسمع همسها الشيق ، ويلمس حركتها المتتابعة ، فيتمتع بالحقوق اللامعة ، ويتمتع بالشمس والنسيم . وأخيرا ، أخيرا يداهم ذلك الفيض الحار هدوء حبس فيه الخيال المراوغ المدعو بالراحة : نسمة باردة تهب على وجهه ، وسكون غير مرغوب فيه يهجع فى صدره ، اذ ذاك تتخيله عارفا أكاما أشرقت عليها حياته وبحرا تسير اليه الأنهار » .

هذا هو أسلوب « مى » البديع فى الترجمة مع أسلوب الكاتب الشاعر « مولر » : وحدة فنية وتوافق فى المشاعر .. حتى انه عندما كانت « مى » تنشر فى جريدة المحروسة فصول هذا الكتاب . قال لها أحد الأدباء :

« أسائل ذاتى ساعة أقرأ ذيل « المحروسة » أأنت ناقلة مكس مولر الى العربية أم هو ناقلك الى الالمانية ؟ » — كما ورد فى مقدمتها هى للكتاب .

***

« باحثة البادية ، وردة اليازجى ، عائشة التيمورية »

.. واتجهت « مى » اتجاها آخر فى التأليف .. فوضعت دراسة نقدية

عن زميلة سبقتها فى المجال الأدبى بأعوام قلائل — هى السيدة «ملك» ابنة الأديب المعروف حفنى ناصف — وكانت ترمز لكتاباتها باسم « باحثة البادية » ؟. بدأت «مى» تكتب عنها عام ١٩١٦م وتنشر هذه الدراسة مسلسلة فى مجلة « المقتطف » ، ثم جمعتها فى كتاب نشر عام ١٩٢٠ م وكتب مقدمته الدكتور يعقــوب صروف معجبا ومقدرا كفــاح « مى » الفكرى من أجل بنى جنسها .. ويقول فى هذه المقدمة: «أنا أول من حيا الآنسة ملك كريمة أستاذنا المرحوم العالم والأديب الكبير حفنى ناصف — فى المجلة المصرية بعنوان « بزوغ شمس » حين استتمت — وهى فتاة — تأديبها وبدأت تجرب قلمها ناظمة . فلما تزوجت ظننتها وئدت كما كانت توأد البنات الى عهد — بعد زفافهن . ثم لما طفقت تترسل ناشرة فى الصحف ما يعن لها لم أحسبها فى الفريق العالم بجد وموالاة على انها من صنوانها فى الجنس اللطيف ولم أخلها موحــدة الغاية والقصد التماسا لتحقيق ذلك الرأى الذى هو معتقدها واليه مرماها — ظلمتها فى كل ذلك لانى حملتها على محمل أخــواتها اللواتى تصدين للتحرير فى الجرائد قبلها وما أشد الخطأ فى مثل هذا القيــاس . أما الآن فقد انصفها فكرى ولكتابك الفضل ؟ منه تبينت أنك طالعت كل حرف خطته « باحثة البادية » وأنك تعقبتها فى كل حياتها الأدبية العلمية وانك لم تفتك شاردة ولا واردة مما نبض به قلبها لأختها فى الوطنية والدين بتــولا وزوجا وأما . فلما نظرت فيها من وجوه كونها مسلمة ومصرية وكاتبة ناقدة ومصلحة نظرا مقررا للحــق نافيا للريب استكشف مكنونات ضــميرها بمجهرك المبين وأوضحت غرضها ايضاحا اليه سينتهى البحث يوم يلتمس الوقوف على مبدأ النهضة التى قيض بها عود الجسم الاجتماعى فى الكنانة الى سلامته التامة أى سلامته فى شطريه كليهما » [1] .

الى ان قال عن « مى » فى بحثها هذا :

---

(١) توفيت (ملك) وهى فى زهرة العمر لم تتجاوز الثانية والثلاثين من عمرها .

« جارت أكتب الكتاب الأوروبيين فى هذا النوع من البحث والنقد ، ولا أتذكر أننى رأيت حتى الساعة من ضارعها فيه من كتاب العربية ولا من فاقها من الأوروبيين » .

ان الدكتور صروف يصدق فى ذلك اذا كان يعنى تفوق « مى » على أديبات العربية اللواتى لم يعلن بعد الى ما بلغته هى من فن الكتابة وادراكها للرسالة الأدبية . وفن تعابيرها البليغة القوية .

وقد رثى الشاعر حافظ ابراهيم — باحثة البادية فقال يعنى أباها :

« انا لم أذق فقد البنين ... ولا البنات على الكبر
لكننى لما رأيت فؤاد ... ه وقد انفطر
وشهدته أنى خطا ... خطوا تخيل أو عثر
أدركت معنى الحزن ... حزن الوالدين فما أمر »

ثم وضعت « مى » محاضرة مطولة عن « وردة اليازجى » ابنة الأديب خليل ناصيف اليازجى — ألقتها فى حفل جمعية الشابات المسيحيات عام ١٩٢٤ .. وهذه المحاضرة دراسة نقدية لحياة وردة الأدبية .. وقد نشرت تباعا فى المقتطف أيضا ثم طبعت بعد ذلك فى كتاب بمطبعة البلاغ .

وعقدت « مى » دراسة ثالثة عن الأديبة « عائشة التيمورية » .. نشر قسم منها بمجلة المقتطف — فى ذلك العهد — ولم تطبع كاملة فى كتاب الا بعد وفاة « مى » بنحو خمسة عشر عاما ، اذ أخرجته دار الهلال فى سلسلتها الشهرية « كتاب الهلال » فى نوفمبر عام ١٩٥٦ م . وكتب مقدمته الأستاذ طاهر الطناحى .. وتقول « مى » فى الفصل الذى تكلمت فيه عن شعر عائشة :

« .. انما نحن من الذات الانسانية الواحدة الجهة الماثلة ازاء جهة الرجل ، فنختبر اذن بفطرتنا ما لا يستطيع الرجل أن يعرفه ، كما ان اختبارات حضرته تظل أبدا مغلقة علينا . واذا قدر للمرأة المصرية ان تلج باب الشعر والأدب وتمعن فى المسير فى ما وراءه من فسيح المسافات كان مرجع الفضل الى التيمورية التى نشرت أول علم فى الجادة المطروقة ، وبكرت فى ارسال الزفرة الأولى أيام كانت تكتم الزفرات وكان ارسال

الصوت فى عالم الأدب يحسب للمرأة عارا وجريمة . ويوم ينمو الأدب النسائى فى هذه البلاد فيجيىء حافلا بحيـاة فنية غنية ، ستظل أناشيد عائشة ـ هذه الأناشيد الساذجة ـ لذيذة محبوبة كترنيمة المهد القديمة التى هممهت لنا بها أمهات أمهاتنا ، شـجية كشـدو القصب القـائم فى ظل النخيل : ان وراء المشاغل والهموم يلبث القلب البشرى معـذبا بظمأ لا يرتوى ، مثقلا بحنين لا يعرف الاكتفاء والنفاد » .

وهنا نقتطف زهرة من شعر هذه الأديبة التيمورية فنسمعها تقول :

« بيد العفاف أصون عز حجابى	وبعصمتى أسـمو على أترابى
وبفكرة وقادة وقريحـة	نقـادة قـد أكملت آدابى
ما ساءنى خدرى وعقد عصابتى	وطراز ثوبى واعتزاز رحـابى
ما عاقنى خجلى عن العليا ولا	سـدل الخمار بلبتى ونقـابى
من طى مضمار الرهان اذا اشتكت	صعب السباق مطامح الركاب
بل صولتى فى راحتى وتفرسى	فى حسن ما أسعى لخير مآب »

انه شعر يرضى عنه الرجل كما ترضى عنه « مى » وتعجب بروحه المحافظة . وفى عام ١٩١٣ م عندما كانت « مى » تواصل نشر مقالاتها المختلفة فى الصحف أشار عليها الأستاذ « ولى الدين يكن » أن تجمع هذه المقالات وتنشرها فى كتاب ، فعملت بفكرته وسمتـه : « سوانح فتاة » . ونشرته دار الهلال عام ١٩٢٢ .

ثم ألفت «مى» كتابا قيما فى عدة بحوث اجتماعية دعته «المساواة»

ولقد تحدثت فيـه عن أهم نظم الانسان الحياتية فى الديموقراطية والاشتراكية والأرستقراطية ، وفى غيرها ، ومما تناولته أيضا نظم التشريع الاسلامى باجلال واكبار عظيمين .. فأبدعت ، وأعجب كل من قرأ أفكارها وتأملاتها .. وكان قد نشر الكتاب مسلسلا فى مجلة «المقتطف» ثم طبع فيما بعد .

وهذا كتاب بديع آخر لمى ـ يضم كثيرا من المسائل الأدبية فى مواضيع النقد والشعر ودراسة اللغة .. ذلك هو « بيت الجزر والمد »

وقد كتب مقدمته الأستاذ سـلامة موسى ونشرته دار الهلال . كما نشرت كتاب مى الآخر عام ١٩٢٣ م والذى سمته « كلمات واشارات »

وهو مجموعة الخطب التى ألقتها فى مختلف المناسبات بشأن المرأة والاصلاح والتكريم، وقدمه الأستاذ أميل زيدان بكلمة قصيرة قال فيها :
« لمن دواعى الافتخار « للهلال » أن يبرز الى عالم الأدب العربى هذه المجموعة الفريدة — نقول فريدة لا من قبيل الاطراء المألوف بل تقريرا للواقع ، اذ لا نعرف بين مختلف المصنفات التى نشرتها المطابع العربية مجموعة خطب تضاهى هذه فى تنوعها وسلاستها ورشاقة أسلوبها وبعد مراميها وجمعها بين طلى الفكاهة وعميق البحث والمغزى ، فضلا عن كونها من قلم آنسة شرقية عربية » .

وفى هذه المجموعة مقالة « جبران خليل جبران » التى أرسلها من نيويورك لتلقى فى الاحتفال بتكريم الشاعر خليل مطران الذى أقيم فى القاهرة مساء ٢٤ أبريل عام ١٩١٣ م — وقد ألقت « مى » المقالة فى الحفلة وعلقت عليها بخطبة من قلمها قالت فيها :

« فى هذا الاجتماع البهى لم نسمع الا أصوات الرجال ، مادحة مقرظة معجبة شاكرة مفتخرة . وصوتى — الصوت الوحيد الغريب بين تلك الأصوات القوية الجميلة — انما ارتفع ليقوم مقام صوت رجل غائب والآن أريد ان أتكلم بنفسى وبصوت جنسى . أريد أن أضم الى صوت الفكر العظيم الذى ترتج لدويه دقائق الفضاء ، صوت القلب الخفى المرتجف الذى ترتعش لمروره ذرات الكيان وتطرب لصداه خفايا الأرواح » .

وهنالك أيضا كتاب مقالات آخر لمى .. هو « ظلمات وأشعة » . قسمته الى ثلاثة أقسام : « من كوة الحياة ، نحو مرقص الحياة ، فى مرقص الحياة » .. وهى مقالات فى الوطنية والتقدمية ونظريات « مى » وآراؤها فى الحياة ومعالجتها لكثير من المشاكل الاجتماعية والانسانية : ونشرته أيضا دار الهلال عام ١٩٢٣ م .

وفى تقديم القسم الأول قالت « مى » :

« .. وقفت عند كوة الحياة لا أدرى لماذا أقف ومن ذا أوقفنى هناك . واذا بالناس فى السبيل يمرون ، فأخذت أتصفح الوجوه منهم

والحركات لعلي أعثر على ما يجعلني مختلفة عنهم وهم مختلفون عني ، ولعلي أدرك ما هذا الذي يطلب مني رغم حداثتي وحيرتي وجهلي وقلة اختباري . فصرت أعجب بالناس وأغبطهم على مالديهم وليس لي أن أفوز بمثله ، وأتعزى بمظاهر الكآبة عندهم لتكون تلك المظاهر صلة ، ولو واهية بيني وبينهم . على أني لم أزد الى شعورا بحيرتي وعجزي ، لم أزدد الا شعورا بأني خيال لاضرورة له ازاء تلك الأقوام الفرحة الضاحكة . — مع أن الخيال يطلب منه شيء كثير لا يدري ما هو . فظننت لحظة أني وصلت الى قرارة اليأس وأني شربت كأس المرارة حتى الثمالة . ثم أوحي الى بأن هناك وجودا غير ملموس يدعى السعادة ، وشعورا باحتياج محرق الى التعرف اليها والتمتع بها . ففهمت أنه ليس أقسى على النفوس في انفرادها وسكوتها وعجزها من تلقي ذلك الوحي العنيف والشعور بذلك الاحتياج العميق » .

ثم تقول « مي » في تقديم القسم الثاني بفلسفة سهلة ممتعة :

« .. ولما انتهى دور الوقوف في الكـون وجدتني بين الجماهير ووجهتي مرقص الحياة ، جاهلة من ذا يسيرني واياهم وبأي دافع هم يسيرون . فتناولني حينا دوار الاختلاط بالجمع الكبير ، الا أن الشخصية العامة لم تستول على فتغرق في قدرتها عجزي . بل بقيت أنا تلك الصغيرة الضعيفة الحائرة وسط المعضلات والرزايا . ولم يفتأ ذلك الوحي المعذب يهمس في سورته ، وذلك الاحتياج المتوهج يضرم في ناره . ففهمت أمرا آخر وهو أنه حيث تكون العاطفة متيقظة مرهفة فهنـاك النزاع الاليم والاستشهاد ، واذا رافقتها الأنفة وشرف السكوت على مضض الحروق والكروب فهناك مأساة الصلب تتجدد مع الأيام » .

وتقول « مي » في نهاية تقديمها للقسم الثـالث بأسلوب البلاغة المتمكنة منها :

« وها أنا ذي أسير في أطـراف مرقص الحياة معانيةً ما يعانيه مساجين الوجود جميعا ، يبرح بي واياهم الشوق الى السعادة وأتلقى مثلهم ذلك الوحي المتجدد بوجودها . وعند كل خطوة خيبة وكمد ، وعند

كل خطوة أمل وجذل ، وعند كل روعة حيال هذا السيل الحيوى الذى يتدفق مرغيا مزبدا الى حيث لايدرى. وعند كل خطوة استفهام لاجواب له عن معنى الحياة وغايتها ، عن معنى الألم وغايتـــه ، عن معنى الطرب وغايته . وعند كل خطوة سؤال للكون : « لماذا وجدت النفس الانسانية كالنحاس المجوف ترجع لكل صوت يقرعها صدى رنانا عميقا وجيعا » .

ان الأديبة « مى » تتعمق فى تأملاتها .. تستمد من مشاعرها المرهفة أفكارها وهى تتفلسف فى نظرياتها ، وتكتب بهذه القوة البيانية والروح الأدبى الرفيع ، وكأننا حيال أسلوب « جبران » أو « الرافعى » البليغ الرشيق الرقراق وشو يتدفق بالحياة والجمال والروعة والخيال .

فى ٢٩ أبريل عام ١٩٢١ أقامت « جمعية مصر الفتاة » حفلا كبيرا بالجامعة المصرية و « مى » على رأس المحاضرين فألقت محاضرتها «غاية الحياة » ثم كتبت عنها جريدة « المقطم » تقريظا رقيقا جاء فى مطلعه :

« خلقت « مى » لتكون شاعرة فى نثرها كما أعدت لتكون حكيمة فى شبابها ، وقلما تخلو كتاباتها من جمع هاتين الصفتين تصوغ المعانى والآراء الحكيمة فى شعور منثور تنظمه سمطا نفيسا أو تجعله طاقة زهر أنيقة معطرة الشذا فى آنية البلور الصافى أو الصينى السيفر الغالى .. نظرت « مى » الى الحياة نظرة قد تكون أقرب الىالخيال منها الى الحقيقة ولكنها رفعت غاية الجمال ولا سيما حياة المرأة الى مستوى ان لم يتيسر بلوغه فى هذا الدنيا فلا بأس بأن يكون غاية توضع نصب العيون وتتوق النفوس الى بلوغها » .

وصدرت هذه المحاضرة « غاية الحياة » فى كتيب منفرد . ومنها تقول « مى » وهى تأمل وترجو : « أن تكون مجموعة أعمال المرأة غاية جليلة يقوم بها النساء عاليات الجباه تحت أكاليل العـــزم والجهاد وقد اختفت عن عيونهن خيالات الخضوع والمسكنة وحلت محلها نظرة من لم تعد عبدة المجتمع ولا عبدة الحاجة ولا عبدة الرجل ولا عبدة قلبها وهو أعظم جائر مستبد » .

انه التحليل الصادق لقلب المرأة تستنتجه المرأة — وهى أعرف الناس بأسرار نفسها — ولهذا كانت « مى » تدرك الخطر الذى سيحيق بالمرأة اذا ما جرفها التيار المعاكس وانساقت بعواطفها مع آراء أدعياء التحرر المسرف البغيض ، لتصبح سلعة ومتعة دانية الجنى من الرواد ، فتفقد أجل معانى أنوثتها وتكوينها الرقيق .. استمع لمى تقول فى أحد مقالاتها عن ذلك :

« يصيحون : علموا المرأة لتستنير ، علموها لتكون حرة ، علموها لتشعر بكرامتها ككائن انسانى ، علموها لتتعرف حقوقها فتخرج مسلحة بها الى ميدان الحياة الفسيح . وأنا أقول : علموا المرأة ليكون لها شرف الرجوع الى داخل المنزل . ففى داخل المنزل الحرية الحقة والكرامة الانسانية الحقة ، وانتصار الحق . بانتصار الواجب ، وفى داخل المنزل ميدان الحياة الفسيح والعمل الأعظم الذى يذيع النور فى بنى الانسان . ان المرأة التى لا تدرى عظمة المنزل سواء كان قصراً أم كوخا — ولا تقدر أهميته وعذوبته ومبلغ تأثيرها فيه ، فتلك امرأة جاهلة ولو هى فازت بنصف دستة من الشهادات الدنيا والعليا والتى هى بين بين . علموا المرأة لترجع الى داخل المنزل فتكيفه على ما يجب أن يكون ، فكما يكون منزل القوم كذلك يكون وطنهم الحسى والأدبى » .

ترى هل تسمع فتيات اليوم ونساؤه هذه الحكم الغوالى ، وهن فى دور الدراسة أو العمل ؟ هل تدرك بحق « حواء اليوم » غاية حياتها ورسالتها ؟ ويا ليت كل أديبات العصر يوجهن المرأة الى حصانتها ، كما دعت أديبة الجيل الآنسة « مى » ويعملن حقا لأسرار وجودهن التى جئن من أجلها ؟ .

وما دمنا نحوم ونطوف حول مؤلفات « مى » فلابد لنا من أن نستقصى ألوان كتاباتها وبعض آرائها ، فهى تقول عن رجال الصحافة :

« أصبح الصحافيون زمرة « قوية » تخشاها الأرض ومن عليها ، فهم ينتقدون القوانين ويحاجون الحكومات ويسنون أوامرهم للبشر ، ويبسطون آراءهم لأولى الحل والعقد حتى اذا شعروا بأن الفكرة التى

تبدو انها بعيدة عن ذهن القارىء عمدوا الى أسماء التحبب فدعوه تارة « القارىء اللبيب » وحينا « القارىء العزيز » فعلى كل لبيب كريم عزيز أن يفكر أن ما جاء فى المقال هو الحقيقة بعينها » .

وتقول فى خواطرها عن نواح أخرى من الحياة :

« كلا ؟؟ كلا لا ظلام فى الحياة .؟ وانما هى أنظارنا الكليلة التى تعجز عن النور فى أبهى مجاليه .. جبار هو ذاك الذى يكون شعاره فى الحياة :

« سأتألم ولكنى لن أغلب » .

«لو كانت السعادة متعلقة بشأن أو شأنين من شئون الحياة لتيسرت لجميع الناس دهرا بعد دهر . ولكنها كالشقاء تتألف من جميع عناصر الحياة ، ووقع كل من تلك العناصر يختلف باختلاف الأمزجة . لذلك تجد البحث عنها متواصلا والتساؤل متجددا فى كل قلب ينبض ويألم » ؟

ولمى فى مراسلاتها لغة أدبية تشعشع بالمعانى والتعابير الواعية . وهذه هى تقول فى رسالة لها للدكتور يعقوب صروف عن رأيها فى الكليات وفى غيرها :

« هناك عـلى شط الأزرق البعيد كلية تلثم الأمواج قدمها ليل نهار ؟؟ انى أعبد البحر لأنى أرى فيه أتم صورة للأبدية على الأرض ، وأعبد الكليات لأنها .. ما أكثر الناس ولوعا بالأسماء الضخمة ، ولكن فلتحل قشرة الظواهر قليلا ، يصبح امتحان الجوهر ميسورا.. ما الكليات الا كتاتيب تعلم المبادىء والمبدئيات ، والمرء بادىء أبدا مهما كبر علمه واتسعت معارفه ؟. اذا كانت المدارس الابتدائية تعلمنا القراءة ، فان الكليات والجامعات لا تعلمنا الا ذلك .. تلك تعلمنا كيفية جعل الحروف كلمات وعبارات ..وهذه تعودنا تحويل الكلمات والجمل معانى وأفكارا .. تلك تلقننا أبجدية اللغة ، وهذه تدفع الينا أبجدية العلم ، أى أبجدية الحياة والنور .. ولئن كثر الجالسون على مقاعد الجامعـات ، وكثرت العيون المحدقة بحروف الضياء الخفى ، فما أندر العقول المتنبهة لهمس

الوحی ، وأقل الأيدى التى ما تسرب النور الى ثنايا فكرها يوما الا رفعت مصباح العرفان تهزه فى جو الحياة .. هذا ما أردت أن أحيى به الدكتور هورد بلس ، وأحيى فى شخصه الكلية التى أنجبت لنا من أنجبت .. الكلية التى تعلمت أنت فيها أبجدية النور .. والآن التفت الى الزاوية اليمنى ، فأرى الأثر النفيس الذى وضعته يدك الكريمة فى تاريخ نهضتنا أولا ثم فى مكتبى هذا الصغير . فحق لى القول بأن مقتطفنا صار مقتطفى أنا .. فتحت اليوم أحد الأجزاء ، فرأت عينى صورة رجل ترصع الأوسمة صدره ، فقلت فى نفسى ان أوسمتك أنت فوق جميع الأوسمة جمالا ، كل سنة من سنى المقتطف وسام خالد على صدرك لا ينال الصدأ من تبره ولا تعرف الغش درره ،بل ان ما فيه من السناء أبدى التألق على كر الدهور .. كلما عكفت على مطالعته رأيتنى طفلة صغيرة ، وخلتك نبيا يقودنى بيدى فى حديقة فكرية أشجارها من غرس نشاطك وأثمارها حركات قلمك ، والأطيار المغردة على أفنانها خيالات أفكارك . فما أبصر شجرة أو ثمرة أو زهرة ، الا سألتك : أهى من صـــنعك ؟ .. فتضحك أنت من سذاجتى وتسير بى الى ناحية جديدة من الحديقة الفيحاء حيث أجد جمالا جديدا وتنسيقا بديعا . واعجابى وسرورى يتجددان مع كل خطوة من خطواتى » .

وكانت « مى » قد تمنت مرة لو أن يسبق أجلها الدكتور صروف ليقوم بالكتابة عنها وانصافها ، كما أنصفت باحثة البادية .. فكتبت له :

« لا شك عندى فى أن كل كاتب يتمنى أن يكون له من يذكره على هذه الصورة بعد موته ، وأتمنى أن ينالنى ما نال باحثة البادية من حسن الحظ لأن المخلصين قليلون حتى بعد موت الكاتب . والعداء له والغيرة منه ؟ وتعمد تصغير شخصيته والنيل من مقامه يبرز الى الوجود بعد سكونه فى قلب الثرى . وعندنا على ذلك براهين شتى .. وكفى ان نذكر ادجار ألن بو المسكين .. نعم اتمنى ان يأتى بعـــد موتى من ينصفنى ، ويستخرج من كتاباتى الصغيرة المتواضـــعة ما فيها من روح الاخلاص ، والصدق والحمية والتحمس لكل شىء حسن وصالح وجميل لأنه كذلك ،

لا عن رغبة فى الانتفاع به ؟. وقد قال قوم ان هذه صفة حسنة . واذا كانت لى صفة فهى تنحصر فى هذه . وأنا سعيدة بها لانها كل شخصيتى بل أتمنى أن أموت فى حياتك أنت لتقوم لى بذلك العمل المبارك ، فأكون خالدة بخلود قلمك الذهبى باستحقاقى » .

ولكن « مى » خالدة باستحقاقها : بأدبها وفنها وبراعتها القلمية التى ظلت تفيض بروائعها حتى آخر أيامها . وهذه طائفة من خواطرها التى لم تنشر الا فى الصحف[1] ، وقد كتبتها بعد عودتها الأخيرة الى مصر من لبنان .. قالت مى :

« فى بعض ساعات الألم تشعر بأن للزمن كهفا تخفره الضوارى وأنت وحدك فيه سجين والناس فوقك شامتون يرقصون ويمرحون » .

« علمينى أيتها المياه كيف لا أستقر فى قبضة يد .. لما رأيت السحابة طائرة عند أبواب الغروب أدركت أنى لن أعرف السعادة الا اذا لمست حواشيها المذهبة فأمتطيتها جوادا ومنذ ذلك الحين ذقت طعم المستحيل » .

« من أدل الدلائل على ذكاء بعض الرجال أنهم شديدو العناية بتلميع الحذاء وبربطة العنق وبالمنديل الحريرى المشرئب من الجيب كيف لا يعنى اللبيب بصقل مواهبه » .

« ما حيلتك فى الذى يمتص دمك ثم يدور على الناس يشكو اليهم أنك تجافيه وتمنع عنه حقه فى احسانك » .

« لا لوم على القائل ان الثقافة تجعل المرأة خشنة دميمة شريرة شيخة قبل الأوان » .

انه فى مطالعاته لم يصل بعد الى روح الكتب حيث منهل الشباب والطهر والجمال واللطف الدائم المتجدد » .

« ما أنت فى الاجتماعات الا بعض الناس . أما فى عزلتك فجميع الناس بعضك » .

---

(١) على رأس هذه الصحف مجلة « العالم العربى » القاهرية التى توقفت أخيرا .

« الثقافة الصادقة تتناول عقل الرجل بالصقل والتنعيم والتلطيف . فتزيل من خشونته وتنيله شيئا شيقا من الأنوثة فيسير فى طريق الكمال النسبى ، وتتناول تلك الثقافة عقل المرأة فتضاعف فيها أنوثتها عشرات المرات فيقول القائلون ان المرأة تترجل » .

« الأفعى الزاحفة على الأرض كيف تستطيع ان تفهم النسر المحلق فى الفضاء » .

« كم من خطاب تلقيته وأرسلته دون تسطير كلمة واحدة » .

« كم من ألم ظن النـاس أنه أذلنى وسـحقنى وهو الذى طهرنى ورفعنى » .

« اسكتى الليلة يا آلات الطرب ان ما بى من طرب هادىء لا يحتمل ضوضاءك » .

« عجبى لهذه الانسانية ما فتئت تعالج نفسها بالاصلاح منذ فجر التاريخ » .

« راقصنى فى السهرة الحـافلة وراح يتعثر فى قدمى حتى ادماها . فقلت : — عفوا أظننى دست قدمك . فقال : معلهش .. جحيمك عندى نعيم » .

« لكل لحن قرار . فهلا اهتديت الى قرارك يا منعم الحياة ؟ » .

« ازدجرتهم فبكوا وعاتبونى . فناح قلبى بين جنبى فازدجرتهم من جديد فلم يفهموا » .

« المطالبة بالحرية قد تكون أحيانا حرية الاختيار لنوع خاص من العبودية » .

***

ان « مى » هنا أيضا نطقت بالحكمة .؟

وأخيرا هذا مقال لم ينشر فى كتبها ، وانما نشرته مجلة العالم العربى سنة ١٩٥٣ فى ذكرى مى .. مقالة فنية قصيرة من مقالاتها البديعة الشائق سمتها « تحية الصباح » وهذا نصها :

« سلاما أيها الصباح عندما تنبثق من قلب الفتى وقد حصدت لنورك أشعة جميع الزواهر وجنيت لطيب عرفك جميع الأزاهر .

سلاما أيها الصباح عندما يرسم قلمك على طول سلسلة المقطم خط الضياء واللهيب دقيقا متعرجا فى اتساق عجيب ، كأنما هو يفصل بين العالم المتكون المحسوس وبين العالم الذى ما زال فى حيز التخيل والتلون .

سلاما أيها الصباح عندما تقبل شمسك متهادية فى موكبها الوضاح تجلو عن صفحة الكون فيهب الظلام وتكشف اللثام عن محيا القاهرة المتشحة بغيبوبة الأحلام وتزيل الابهام عن قامات المنائر وقبب الأجراس بين المساكن والصروح والقصور معلنة خضوعها فىاتجاهها الى العلىكأنما هى قضت ليلها ضارعة مبتهلة لصالح بنى الانسان .. عذب أنت فى الخريف أيها الصباح عندما تبدو ناعما ذابلا ريان الحنان كأنك تشعر بأهمية البذور التى ألقيت فى الأرض فاشتبكت هناك مع القوى الخفية فى عراك عنيف لتمتص الغذاء والمادة الضرورية لنموها ولتتكون قوة مستكملة مستقلة فى ذاتها . ومؤثر أنت فى الشتاء اذ تظهر حائرا قلقا فى تقلصك من سلطان الليل لخلق سلطان النهار . مثقلا بباهظ الغموم لاضطرارك الى ايقاظ المستسلمين للراحة والغفلة والنسيان وارغامهم على معاناة الحياة وحمل أعبائها ومعالجة شئونها .

وجميل أنت فى الربيع اذ تصحو ناصحا حافلا ببهيج الأغاريد بين الأشجار نشوان بخمرة الحميا السارية فى الغصون مفتونا بجنون اللذاذة المتفشية فى كل ذرة من ذرات الوجود .

وألمعى أنت فى الصيف اذ تشرق رافلا فى مظاهر الغلبة والانتصار تغزو الآفاق بسناء الشمس وتدفق النور متقدا على الكائنات وعلى الخلائق وتحدّث بلغتك المستقرة قائلا لمن يفهم : لقد أعطيتكم كثيرا وأعطيكم الكثير على الدوام فهيا الى الحصاد .

ما أشبهك بالانسان لدن خروجه من مملكة الرقاد .

أجنحة السحب فى موكبك وقد اصطبغت بأصباغ الذهب والفضة والياقوت والزمرد سـابحة فى الأفق السـنجابى لكأنها خيالات لأحلامه وتصوراته وقد لونتها ألوان اليقظة والرجاء .. وتملصك من ربقة الضباب الرقيق الرفيق المطبق عليك لكأنما هو تملص من هناء الاستسلام وعذوبة الراحة ورجراج الحنان الذى يدثره فى وحدته وفى مصرعه .

واشراق الشمس فيك وصعودها متدرجة فى أطباق الفضاء لكأنما هو تركيز ارادته شيئا فشيئا وجلاء أفكاره مع اطراد اليقظة وتقدم النهار وانتظام الأعمال والمساعى .. اجعلنى أيها الصباح أهلا لكل هذا السناء الذى تدفقه حوالى باهر الرواء .. اجعلنى أهلا لبهجة اليقظة التى تذيعها فى . أنت عظيم قوى أيها الصباح وأنا صغيرة مضطربة فارفق بى .

أحبك أيها الصباح فأحبنى . » .

لكأن « مى » تترنم وهى تسطر هذه الخاطرات البهيجة — مستوحية الطبيعة فى مشرق الحياة وجمالها ومفاتنها .. ولو أن الأجواء الرضية السخية بقيت حول الآنسة « مى » لكثر انتاجها وروائعها ، وان كانت هى قد ضربت أكمل مثل حديث للمرأة الأديبة المفكرة .

الشمولية فى أدب "مى"

« مى » شاعرة ما فى ذلك شك ، وان لم تنظم الشعر .. ان احاسيسها السامية فى رقة مشاعرها الملتهبة : شعور دفّاق باليقظة والوعى والنعومة .. وبعض نثرها لا ينقصه الا الوزن .

وهى أيضـا مع حريتها الفكـرية وانطلاقاتها — متدينـة بروحها وعقليتها ، وهى شرقية صميمة فى تقـديرها واحترامها للأديان السماوية ومعـالجتها لأهم مشاكل الشرق واللغة العـربية ، والتغنى بامجادهما ، ودعوتها الى وحدة العرب التىهى من أسرار نهوضهم ومقاومتهم للأساليب الاستعمارية المحيطة بأوطانهم .

وما أجمل رأى « مى » فى لغة القرآن وخلودها .. فهى تقول فى مقالتها « حياة اللغات وموتها ولماذا تبقى العربية حية » من كتابها « بين الجزر والمد » :

« ان الذى كان باعثا على تكوين المدنية العربية هو هو الذى ما زال حافظها الى اليوم : هو القرآن . لذلك ستظل اللغة العربية حية ما دام الاسلام حيا وما دام فى أنحاء المسكونة ثلاثمائة مليون من البشر يضعون يدهم على القرآن حين يقسمون » .

وقد تحدثت « مى » عن حضارات الدول الكبرى وعن عظمة تاريخ العرب وجهادهم المتصل الحلقات .

ومى خطيبة ملهمة عرفتها منابر الجمعيات وحفلات التكريم فى لبنان وفى مصر •• تقول فتبدع وتنثر عباراتها البليغة وخواطرهـا النـيرة فتثير الاعجاب وتغبط الحضور .

فى صيف عام ١٩١٣ م أثناء زيارتها للبنان — وقفت خطيبة يوم ١٥ أغسطس بقرية « بكفيا » فى حفل عيد العذراء تنشر مآثر الشرق مفاخرة بها وبكنوزه وروحانيته وتناجيه — كعادتها — كما لو كانت تتصبى حبيبا تعشقه وتحنو عليه .

وأكثر ما تعنى « مى » بالحديث فى مقالاتها وخطبها قضية المرأة — وهى الخبيرة بادوائها — فتناقش شئونها ، وتدعو لاصلاحها وتكوين السمعة المشرفة للمرأة الشرقية ، بحيث تنال حقــوقها المشروعة وتتعلم حقيقة العلم ، محافظة على حصانتها وشخصيتها كأنثى حية مهذبة ، تفهم سر نفسها وتبعد عن الثرثرة والتبرج ، وتقلع عن عادات هى دخيلة عليها ، ولم تجن منها الا الضياع والانحطاط .. واذا وعت وسمت فهى لا تسف فى عواطفها ولا تستسلم لدعاوى تلك الفئة المضلة الزائفة .. وهى لن تكون كذلك الا بتثقيفها دينيا حتى لا تنحرف بها الطريق ، وتؤمن بحقيقة رسالتها فى المنزل وانشاء جيل الغد بالتربية السليمة والاخلاق الحميدة فى جو يسوده التآلف والتعاون والمحبة .. وما أجملها من رسالة .

ان الدراسات الأدبية التى كتبتها « مى » عن بعض أديبات عصرها — لتدل على اخلاصها الجم لجهاد — وأدب بنات جنسها اللواتى تسعى للرفعة من شأنهن وتبصيرهن بالمقومات اللازمة لحياتهن واسعادهن .

تلك هى مجمل آراء « مى » فى دعوتها لحرية المرأة وتعليمها .. وعظيم منها مخاطبتها لحواء بهذه اللهجة الواعية : « لقد خلقت امرأة قبل ان تكــونى حسناء وكيفتك الطبيعــة أماً قبل أن يجعلك الاجتماع زائرة » .

ويقول صاحب كتاب « حياة مى » : « لو أن الأقدار أتاحت لمى الفتــاة أن تكون أما لكــانت أعلى مثال للأمهات الراقيــات والوالدات الصالحات » .

و « مى » أيضا موسيقية فذة .. تعزف على البيانو والكمان وعلى العود أحيانا ، وتدندن بصوت خفيض ، فتنساب الألحان شجية راقصة

— كما يروى بعض من حضرها فى الاجتماعات الخاصة البريئة — للترويح عن النفس والانطلاق مع اصداء الأنغام عن كثب .

وقد كتبت « مى » مقالا عن ذلك بعنوان « فى عالم الألحان » ضمه كتابها « بين الجزر والمد » .. وكانت تعزف سمفونيات « بيتهوفن » حينما قامت بالكتابة عنه لتعيش فى الجو الذى عبقت فيه ألحان هذا الموسيقار الكبير ، فتعبر فى كتابتها عنه بصدق احساس وبأداء فنى جميل الوقع والأثر .

هذه هى « مى » بأدبها المثالى وبشرقيتها الصميمة وبفنها الرائع وبأسلوبها الأنيق وكتاباتها النضالية الهادفة وبجهادها السامى للادب وللحياة ولقضية المرأة .. مشكلة كل العصور .

ويعجبنى التقدير لمى الأديبة ، وهذا ما وجهه الأديب المعروف المغفور له ولى الدين يكن اليها فى احدى رسائله واصفا بلاغتها الكتابية ومرشدا لها :

« فصولك الغضة تعلو بالمدارك وتنير جوانب النفوس فلا تدعيها كالأوراق التى تخضر فى الربيع وتذوى فى الشتاء ، اجمعيها غضة وكللى بها رؤوس هذه الأعوام .. الناس فى حاجة الى هذه الأنغام الالهية » .

وعندما كتب عن « مى » الدكتور يوسف شخت — حلقتين فى مجلة « المستمع العربى » التى كانت تصدر عن هيئة الاذاعة البريطانية العربية بلندن عام ١٩٤٦ م — استهل حديثه بقوله :

« حينما زرت القاهرة لأول مرة منذ قرابة عشرين عاما كان هنالك نجم جديد يتألق فى سماء الأدب العربى ليس كشهاب خاطف يسترعى الانتباه ببريقه اللماح المسرع ، وليس كالنيزك الذى يبهر ضياؤه الأنظار لحظة عابرة ، بل وليس كواحد من تلك الكواكب السيارة التى تتعاقبها الظلمة والنور . وانما كان مثله مثل نجم راسخ خفاق بالنشاط يسكت فيضا من الضياء الرصين . ومع أن سحابة داكنة قد حجبته الآن عن أبصارنا فانا لنعلم علم اليقين أن مكانه المقدس خالد الى الأبد » .

أجل .. فمى تلاقى الانصاف الحق وهى تنعم بالنوم الابدى — وهى خالدة بقلمها وبتراثها وبأفكارها المشرقة الكبيرة .

وحسبها الزمن القصير الذى عاشته ، فقد كان سطرا عريضا فى قلب التاريخ ، وقد عنى الأستاذ جميل جبر بشىء من هذا التاريخ وأصدر مؤلفا باسم « مى وجبران » كما أخرجت السيدة عائدة صعب كتابا دعته « أطروحة — فى موضوع مى » وهناك أيضا طالبة فى دار المعلمات ببغداد كتبت رسالة فى « مى » لنيل جائزة أدبية .. والبحث فى أدب « مى » شائق وطويل ، وقمين بالدراسة المطولة .

عزاء الأدباء وأحاديثهم

هذه حلقة من أهم حلقات الحياة عند « مى » وفى محيطها وعصرها .. « مى » ؟ .. انها ملهمة الجميع خلال أكثر من ربع قرن من الزمان شغلت فيه مشاعر الأدباء وجذبتهم الى ساحاتها الوادعة البهية .. فكان الكل يغرد بهذه المشاعر ويستوحى المحاسن الطاهرة فى الخلق والخلق .. فى الأدب والجمال ؟. فى التفنن والخيال .

انها : مارى زيادة .. وحسبها ما كانت تتمتع به من فنون خالدة مع الحياة .

لقد أبدع الشاعر اسماعيل صبرى فى قوله يستذكر « مى » وناديها الأدبى شعرا :

«روحى على بعض دور الحى حائمة كظامىء الطير تواقا الى الماء
ان لم أمتع بمى ناظرى غدا لا كان صبحك يا يوم الثلاثاء »

ويصفها الأستاذ العقاد فى شعره اذ يقول :

« الحديث الحلو واللحن الشجى والحنين الحر والوجه السخى
وذكاء المعى كالشهاب وجمال قدسى لا يعاب

أما المرحوم منصور فهمى فيقول عنها :

« انها كانت بارعة الظرف تشارك فى كل علم وفى كل حديث . وتختصر للجليس سعادة العمر فى لفتة أو لمحة أو ابتسامة » .

وفى سنة ١٩٢٢ م كانت شهرة مى الأديبة قد بلغت شاعر الهند وفيلسوفها « طاغور » فأرسل يحييها برسالة شعرية اختتمها قائلا :

« أيتها الناعسة افيقى من النوم ارفعى جبينك فى انتظار باكورة»

ومجلس « مى » يحفل دائما بقادة الحركة الفكرية والصحافية وبعض رجال الدولة ، ويستقبلهم — كما ذكرنا — مســاء أيام الثلاثاء : كتاب وشعراء وفنانون ، وكلهم معجب بشخصيتها وبأدبها ودماثة أخلاقها ، ولم يكن من بأس على من تفيض مشاعره أنغاماً تشجى وترتل شعرا يتغزل فى هذه الجميلة الأديبة .؟ بل هذه القديسة الفنانة ، فهذا الدكتور الياس فياض يقول شعرا :

« يا مى حانت ساعة الميعــــاد فولى فؤادك عن خفوق فـؤادى

كما أن غيره يقول :

« مى » ومن فى الناس يجهلهـا فالطيب لا يخـــفى اذا انتشرا

أما الدكتور زكى مبارك فيتحدث عنها قائلا فى وصف جميل نشر بمجلة « العالم العربى » :

« ثم تجىء عروس الأدب النسائى فى هذا الجيل .. وهى فتاة أعرفها جيدا ، فقد كانت رفيقتى فى الدروس وزميلتى فى طلب الأدب والفلسفة بالجامعة المصرية — وهى المدموازيل صهباء .. أعرفتم من هى ؟ ان لم تعرفوا فاسمعوا : كان لى بالجامعة المصرية زميلة تنافسنى منافسة عنيفة وكنت أضمر لها ظلا من البغضاء ، ولحظ ذلك المرحوم اسماعيل بك رأفت فدعانى الى مكتبه ثم قال :

« أتعرف ما معنى « مية » التى تغنى بها الشعراء ؟ فقلت : لا . فقال : مية هى الخمر الفارسية ؟ وأهل فارس يسمون الخمارة « مى خانة » ، فعرفت منه يومئذ أن الآنسة « مى » معناها المدموازيل صهباء .

والآنسة مى هذه شخصية صحيحة النسب الى حواء . هى شخصية نسائية فى كل شىء . قلبها قلب امرأة وعواطفها عواطف امرأة ، وأسلوبها فى الكتابة والخطابة والحديث أسـلوب فتاة خلوب تعرف كيف تغزو الصـــدور والقلوب ، هى فتاة مخضرمة جمعت بين الشـــمائل المصرية والسورية ؟ واطلعت على آداب كثيرة لأمم مختلفة ، وعرفت كيف كان

يفكر العرب وكيف يفكر المصريون والفرنسيون والانكليز والالمان .. ومن المؤكد عندى أن هذه الفتاة متينة الثقافة الى حد بعيد ، وهى أنموذج للفتاة المثقفة التى ينشدها أهــل هذا الجيل ، ومعرفتهــا بالأدب معرفة صحيحة وهى من أجل ذلك تعد من نوادر المثقفات » .

فهل هنالك أجمل من هذا الاعتراف وهذا التقريظ وهذا الاقرار بملكات مى الرائعة ؟ .

وللشاعر اللبنانى شبلى الملاط قصيدة قالها فىحفل تكريمها ببيروت عام ١٩٢٢ وهى مثبتة فى ديوانه الذى صدر عام ١٩٢٥

الا حملوا اليــك حــديث مى ... كأزهار الجنــاين فى شـــذاها
وهل رصـــدوا فرائدها الغوالى ... كأبراج الـكواكب فى ســـماها
وهل طافوا بمكتبهــا وحجـوا ... هنالك فى الكنانة منتـــداها
اذا نزلوا عـــلى عصـماء علم ... تذيب العمـر كى تحيى سواها
اذا نادت به الجـوزاء ودت ... جباه النجـم أن ترعى ثراهـا
وليس ســوابح الأفـلاك تجـرى ... بأبدع أو بأسرع فى مـــداها
من القلم الــذى علتــــه مى ... مسهدة عليـــه مقلتـــاها
سقت غريبه من شـــهد وخمر ... كذلك من براها قد ســـقاها
كأن الله من ســـحر ودر ... أتاح لمى لاحظـــــــة وفاها
وشـــاور أمهـــا لما براها ... وشـــاور ، يوم كونهـا ، أباها
فجـاءت مى معجـــزة تناهى ... من المعنى اليهــا ما تنــاها
نعم بلد العجائب كان مهـــدا ... لهــا والنــاصرى به رعاهـــا
وكم ولدت فلســـطين نبيــا ... وكم هــزت له مهـــدا يداها
وكم أعجـــوبة تمضى الليـــالى ... واهـــلوها ولا يمضى صداها
ومن ذكـرى لأجيال تلاشـت ... وبادت وهى لم تـدرك مناها
ومن ورد الحياة وان تمـادت ... قضى عطشانا لا يجـد المياها
وأمت مى لبنـــانا أباها ... تعـد به لدعوتها قـــواها
فصـــادت من مدارسه فتاتا ... كذاك هى العلوم بمبتـــداها
وضاقت أرض لبنـان عليهـا ... ورن بأذنها صـــوت دعاهـا
(ترحل عن مكان فيـه ضيم ... وخل الدار تنعى من بناها)
وشـدت نحو أرض النيل علما ... وأن الرزق رحب فى حمـاها
فـكان لها الغنى فيهـا ، ولكن ... أبالأموال قد وجـدت غناها ؟
أبالدنيـا ولم تطلب حطـاما ... من الرزاق الا من كفـاها ؟
رأت كل الغنى علمـا صحيحا ... يجر وراءه مجـــدا وجاها
وأن المال مع جهـــل سفاه ... وكم فى الأغنيـاء ترى سفاها
فلذ لهـا السـهاد على كتاب ... ألا وصفت لنـا مى دجـاها ؟
وهل أبقى الخيال لها خيالا ... يطـوف بروح مى فى كراها
الا نعم الكتـــاب فتى (لمى) ... اذا سئلت فتـــاة عن فتـاها
وفلســـفة اذا حدثت عنهـــا ... حنى النفـر الفلاسفة الجباها

وموسيقى لها ترجيع شجو ... كساجعة الخمائل فى بكاها
وكم سالت على الألحان روح ... وكم عاشت نفوس فى هواها
وكم صعدت الى الأفلاك مى ... وكم نقلت (بآثينا) خطاها
وكم نثرت على (فينوس) زهرا ... وكم وجدت (زهرتها) هداها
وكم أولت من الاخلاص مصرا ... وكم خدمت بنهضتها نساها
وكم أدى لها الهرم احتراما ... وأكبرها المقطم فى علاها
وكم من مرة مصر تمنت ... وودت أنها احدى ظباها
رويدك ان بنت الأرز مى ... وحسب الأرز أن يدعى أباها
فما ضنت على مى بلاد ... اذا ذكرت ترنح جانباها
وهل تنسى (الجبال) غداة مرت ... بها كالظبى ترتع فى رباها
وهل تنسى (بعنطورا) زمانا ... اذا ذكرت قالت مى آها
وهل أيام ذاك الكوخ بانت ... وهل حول (الصفا) نسيت صفاها
ديار غذيت مى هواها ... وشبت وهى ذاكرة هواها
اذا برزت مليحة كل حى ... مقلدة موسوسة حلاها
تجر ملاءة بيضاء سعيا ... الى لقيا هناها أو شقاها
توارت مى لاهية بسفر ... تؤلفه جديدا فى خباها
وليس لها حلى الا مداد ... وثوب من مؤلفها كساها
كذا اقترحت على الدنيا مناها ... كذلك مر شطر من صباها
ومن بدأت بما عانته مى ... فان الله يحسن منتهاها

ولقد راسلت « مى » كثيرين من الأدباء فى مصر وفى خارجها من لبنان والعراق وأمريكا ومن غيرها ؟. وكان كل من يقرأ كتاباتها ينجذب اليها ويسحر ببيانها .. وممن راسلتهم اللغوى العراقى المعروف الأب أنستاس الكرملى وقد أهدت له كتابها « باحثة البادية » — فكتب عنه فى مجلة « دار السلام » مقرظا معجبا بفن الأديبة النابغة ، وأصبح يراسلها زمنا . ويروى عن ذلك الكاتب العراقى روفائيل بطى ثم يورد فى حديث له بمجلة « العالم العربى » احدى رسائل « مى » للكرملى فى ردها عليه وهى فى الاسكندرية بتاريخ ١٤ أغسطس ١٩٢١ م .. قالت :

« أبتى .؟ جئت بعد سكوت أسابيع أشكر لك الكلمة العذبة التى أنفذتها الى من مرسيليا ، تحمل على ايجازها آية من آيات بلاغتك وشاهدا من شهود وداعتك — وما لزمت هذا الصمت الطويل الا لأنى هجرت القلم منذ تلك الأيام بسبب سقوط والدتى على ذراعها وأصيبت فى الكتف ، ووجع العظم المكسور مؤلم كل الألم للمريض ولذويه جميعا . وكان ان ابتليت بالأرق المتتابع مما أدى الى انحطاط عصبى عام ، فأشار

الطبيب بتغيير الهواء ، فجئنا هذه الربوع وضربنا خيامنا فى حمى الزرقة الفيحاء ، وصارت أعصابى بعد أيام تخضع خضوعا تدريجيا لسنة الكرى وأصبحت قادرة على لم شعثفكرى لأكتب انلم يكن صفحات فكلمات. وانى لأكتب رغما عن نهى الطبيب وأمره بأن أستريح كل الشهور القائظة دون تمييز سطر واحد . والأطباء مستبدون وأنا أحب العناد وأنت يا أبتى — هذا هو السبب الجوهرى — فوق كل أمر نهى ، ومناجاتك بركة عظيمة الفائدة على كل من سعد بتذوقها والتمتع بمحاسنها » .

أما الأستاذ فؤاد صروف فيصور معرفته « بمى » فى ذكريات يكتبها كأهم الحوادث ويؤكد المراسلات الطويلة بينها وبين عمه الدكتور يعقوب صروف مؤسس المقتطف — فيقول :

« لقيتها أول ما لقيتها فى دارها بالقاهرة فى أواخر صيف ١٩٢١ م ، فقد جئت القاهرة زائرا يومئذ لقضاء أسبوعين فيها ونزلت ضيفا على عمى ؟. وكانت الصلة الأدبية بين هذه الأديبة العبقرية الناشئة والفيلسوف الشيخ قد أخذت تتوثق وكان يرعى انتقالها من الكتابة باللغة الفرنسية الى الكتابة باللغة العربية أدق رعاية شأنه فى ذلك شأن كبار الأدباء والشعراء فى ذلك العصر ، وكان معجبا بذهنها المتوقد واطلاعها الواسع ودأبها على المطالعة المجدية فى كتب صنفت بلغات شتى » .

ويروى الأستاذ أسعد حسنى رئيس تحرير مجلة « العالم العربى » فى ذكرياته عن « مى » بأن الشيخ البستانى صاحب مكتبة العرب تلقى رسالة من « مى » ردا على اهدائه لها رواية تحمل اسم « مى أو أوراق الخريف والربيع » للشاعر الانجليزى « الكسندر بوب » مترجمة بقلم الأستاذ أحمد شاكر الكرمى .

وهذه رسالة « مى » للأستاذ البستانى — والعهدة على الراوى — اذ أن الرسالة تكشف عن سبب اختيارها لاسم مى .

« .. أهديتنى الرواية لأنها تحمل اسمى ، ولكنك لا تعلم أن هذه الرواية كانت السبب فى انتحالى هذا الاسم ، ذلك أن والدتى قالت لى

انها مثلت دور البطلة فى تلك الرواية — يوم كانت تلميذة فى المدرسة ، وان حلاوة اسم « مى » حلاوة هذا الاسم الجميل بقيت على لسانها كل هذا الزمن ؟. وعندما أقبلت على الكتابة بالعربية وأخذت أبحث عن اسم عربى أستعيره للتوقيع ألحت على المرحومة والدتى فى انتحال اسم « مى » الرشيق كل الرشاقة العربى كل العربية ، وأغرتنى على اتخاذه لى وبخاصة أنه من اسماء عرائس الشعر ، وانه قليل التداول فى تسمية الفتيات .. واتفق كذلك انه مكون من أول حرف وآخر حرف من اسم « مارى » كما أن « مى » باللغات الأوربية تصغير « مارى » للتحبب .. وأخيرا لأنه الاسم الذى أحبته والدتى وسميت به يوما من الأيام » .

* * *

ومن الأحاديث التى أحسن صنعا وأجراها الأستاذ محمد عبد الغنى حسن عن الآنسة « مى » — ونشرها فى كتابه عنها — نقتطف من كل حديث لونا من الاجابة على الأسئلة التى وجهها الى كل شخصية أدبية معروفة ؟

فمما وجهه الى الأستاذ خليل مطران هذا السؤال :

« أسألكم بوجه عام عن مى من حيث شاعريتها ورأيها فى الشعر » .

وهذه اجابته عليه :

« لا بأس قبل الحديث عن مى أن أشير الى أول معرفتى بها . فقد جاءنى فى يوم من الأيام الشيخ يوسف الخازن وكان صاحب جريدة الأخبار المصرية وناولنى ديوانا من الشعر مكتوبا عليه اسم المؤلفة « ايزيس كوبيا » ولم يكن هذ الاسم الا ترجمة أو مقابلا لاسم « مارى زيادة » وطلب منى بعد اتمام قراءته ان أكتب كلمة عنه فى جريدته ، على نحو ما يصنع بكل كتاب جديد لتقديمه الى القراء .. قرأت الديوان فوجدته مكتوبا باللغة الفرنسية بعبارة سليمة تنم على دراسة متقنة دقيقة » .

الى ان قال فى هذه الاجابة المسهبة :

« لم يحصل أن ميا آثرت ديوانا على ديوان أو فضلت شاعرا على شاعر — وهذا بقدر علمي — وكان يطربها فى الشعر ويأخذ من نفسها كل مأخذ ، اما الشعر العالى الخيال ، المخدوم الصياغة الذى ينبه فى النفس العواطف تنبيها قويا ، واما الشعر الذى كتب لأغراض موحدة فصلت فيه تفصيلا محكما ، وقدرت أجزاؤها تقديرا مترابطا وانتهت به الى مغاز ومرام تقع موقعها من الانسانية عامة أو من أمة معينة يكون قد كتب لها ذلك الشعر .؟ لم تغرم مى بالموازنات بين شعر وشعر لأنها كانت تخشى بذكر ايثارها لنوع من الشعر على الآخر أن يكون فى ذلك تثبيط لأية حركة تريد أمم الشرق ان تندفع بها الى تعديل أو تبديل أو اصلاح فيما ألفته وجمدت عليه دهرا طويلا .. بقى ان أقول لك — ذلك ليس من موضوع شاعرية مى — ان كل عنايتها كانت اصلاحا فى الأخلاق والآداب ، اصلاحا فى روح الأمم ومطالبها اصلاحا فى المعايشة بين الجنسين ، اصلاحا فى التربية — وخاصة تربية الأطفال ، اصلاحا فى توزيع الاحسان وتدبير شئونه بدل أن يكون مقصورا على صدقات تكاد تكون بلا قيمة فى النهاية . ذلك كله كان موضع عناية مى ومثار مشاغلها ، وأما مناقشتها فى المسائل العلمية فكانت تجد سامعيها ولم يكن كلامها فى مسألة كلام عابر سبيل أو حديث غير المتثبت ، بل كان كلام الواثق وحديث العارف . وما ادعت يوما انها فيلسوفة ، وكذلك كان موقفها من الشعر تقرأ أو تفهم ما هو أحلى واصفى ولكنها لا تدعى أن تتعرض للمفاضلة . أعنى بجملة الكلام كانت فى نهاية أمرها قد بقيت فيها روح الشاعرية كامنة ، ولكنها — على كمون هذه الروح فيها — لم تشتغل بالشعر ولا حواليه من حيث هو صناعة » .

وهذا سؤال آخر مما وجه للأستاذ عباس محمود العقاد :

« أشرتم فى مقال لكم فى احدى المجلات الى براعة مى فى ادارة الحديث .. فهل نستطيع أن نسمع منكم المزيد فى هذا الموضوع ؟ .

أجاب عليه :

« لا يحضرنى مثل لذلك أدل على البراعة من ادارتها الحديث فى

مجلس حضره نحو ثلاثين كاتبا وأديبا ووزيرا للتشاور فى الاحتفال بالعيد الخمسينى للمقتطف ، وكان اجتماع هذا المجلس عندها فى ابان المنازعات السياسية التى وصلت بكثير من الكتاب والأدباء الى حد التقاطع والعداء .. وكان منهم من حضر هذا المجلس وهم متشيعون الى شتى الأحزاب منتمون الى مختلف الهيئات . فقضينا عندها ساعتين نسينا فيها أن فى البلد أحزابا أو منازعات سياسية بفضل براعتها فى التوفيق بين الآراء والأمزجة وقدرتها على توجيه الحديث الى أبعد الموضوعات عن الخلاف والملاحاة . وما أحسب أن أحدا غير مى قد استطاع هذا الذى استطاعته فى تلك الأيام ، حتى أذكر أننى قلت لها وأنا أودعها تلك الليلة : لقد كنت يا آنسة فى هذا المساء تحملين معزف أرفوس » .

وهذا سؤال ثالث مما وجه الى الأستاذ أنطون الجميل :

« ماهى أجمل الصفات التى أعجبتكم من مى كفتاة مثقفة لنعرضها على فتياتنا المثقفات ؟ » .

أجاب عليه :

« جمَّل الله ميًّا بصفات كثيرة ووهبتها الطبيعة بسخاء ، ولعل ما يجمل بفتياتنا المثقفات أن يأخذنه عن مى شغلها بالدرس والتحصيل من غير اهمال واجباتها الأخرى ، والعمل الدائم على استكمال ثقافتها من جميع مناحى النشاط الفكرى والتمسك بعاداتنا وتقاليدنا وأخلاقنا الشرقية على كثرة ما كانت عليه من مسايرة الحضارة الغربية والاطلاع على مظاهرها .. ولعل هذا الحفاظ من مى على تقاليد الشرق وتمسكها بعاداته يبدو متناقضا مع ثقافتها الأجنبية الواسعة ، ولكن ليس بين الاثنين تناقض ، فقد طغت فكرة الشرق على تفكيرها فألزمتها بعادات أهلها وتقاليد قومها . فهى لم تدرس ثقافة الغرب لتنسى قومها ، ولم تطلع على حضارة الغرب لتتخلى عن مقومات قوميتها وخصائص شرقيتها » .

وهذا سؤال رابع مما وجهللاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق: [1]

(1) كان وزيرا سابقا للأوقاف .

« ما رأيكم فى تحصيل مى للعلوم ، واكبابها على الدرس وغرامها بالمطالعة ؟ » .

أجاب عليه :

« أظن أن أحدا ممن عرف الآنسة مى لايشك فى أنها متنوعة الثقافة ، وانها كانت مشغوفة بالتحصيل والاستفادة والمطالعة . وكانت دراستها — فيما أعتقد — دراسات أدبية . أعنى أنها تذهب الى ناحية التفكير الأدبى أو الاجتماعى أو الأخلاقى من غير أن تنزع الى نزعة التخصص التى تدعو الى الدخول فى معضلات المسائل العالية أو فى استعمال الأساليب الفنية فى التعبير . وليس هذا الذى ذكرت غضا من قيمة (مى) العلمية ، لأنه اذا كان أثر العلماء المتخصصين أثرا كبيرا فى ترقية الفكر الانسانى وترقية الحضارة الانسانية ، فان أثر العلماء المتأدبين فى ترقية الفكر الانسانى وفى ترقية الحضارة ليس أقل شأنا .. ولعل الأفكار والأبحاث العلمية التى لها صبغتها الفنية لا تصل الى دور العمل ودور النفوذ الى عقول الشعوب وقلوبها الا بواسطة الأدب » .

وهذا سؤال خامس مما وجه للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى :

« هل تعرفون شيئا عن رسائل مى والمكاتبات التى دارت بينها وبين الشعراء والأدباء ؟ وما رأيكم فى نشر الرسائل العامة منها التى تتعلق برأى فى الأدب أو فكرة فى الحياة أو نقد لمذهب أو تعليق على كتاب ؟ » .

أجاب عليه :

« أعرف أن كثيرين من الأدباء كاتبوا ميًّا وكتبت اليهم والذى يعرف ميًّا لا يرى بأسا من نشر رسائلها الى أصدقائها فما أحسبها اشتملت على غير آرائها فى الحياة والأدب والكتب وما الى ذلك . ويصعب جدا أن أصدق — الا اذا قام الدليل على غير ذلك — أن ميًّا كانت تتناول فى رسائلها أمورا شخصية على أنى ممن لا يرون نشر الرسائل الخاصة ولو كانت بحثا صرفا وليست مى بيننا حتى يمكن أن تستأذن فى النشر ، ولا أرى من حق أحد أن ينحل نفسه هذا الحق .. ويحسن أن أقول انى لا

أخشى أن يكون فى رسائل مى أو رسائل أحد اليها ما يغض من حسن الرأى أو الاعتقاد فيها . والأرجح عندى أن نشرها يعزز مقامها ولكنى مع هذا لا أوافق على النشر لأن هذا جانب من حياتهـا الخاصـة ولا شأن للجمهور بها » .

وهذا سؤال سادس مما وجه الى الدكتور منصور فهمى (1) :

« هل تعتقدون أن ميًّا نجحت فى أداء رسالتها الأدبية ، واذا كان ذلك فما هى أسباب نجاحها ؟ »

أجاب عليه :

« أعتقد أن النجاح كتب لمى فى أداء رسالتها الأدبية . ذلك لأن ميًّا عاشت فى عصر تقدمت فيه النهضة النسائية من حيث فك القيود وكسر الأغلال التى تقيدت بها المرأة فى هذا الماضى القريب ، ومع أنها هى نفسها انطلقت من هذه القيود استجابة لداعى التطور ووفقا لحاجات العصر التى كانت لا بد أن تحلها من هذه الأغلال وتفكها من هذه القيود ، فانها بالرغم من ذلك دعت بنات جنسها ألا يتمادين وراء هذه الحدود وألا يسرفن فى الاندفاع والتهور ، فارادتهن على ألا يبالغن فى الكفاح السياسى ، كما أرادتهن على ألا يضيعن حق الأنوثة ، أو يغفلن واجبات الأمومة .. فكانت رسالتها فى الحق دعوة مخلصة صريحة لأخواتها فى الجنس ، وزميلاتها فى الأنوثة وكان سبيلها فى الدعوة الكتابة ، فهى كفتاة كاتبة قد خصصت شباة قلمها لنشر دعوة آمنت بها وحرصت عليها ودافعت عنها باخلاص وصدق . فهى من هذه الناحية قد نجحت وأدت رسالتها — كامرأة — فى حسن بلاء ، وصدق نضال ..

ولعل ميًّا نجحت فى هذه الدعوة لأن المتزنات من النساء ممن أصبن حظا غير قليل من المعرفة ، وأدركن ما كن يطمعن فيه من الثقافة والتحرير كن يرين ما رأت مى ، وينزعن فى الاعتدال منزعها ويذهبن الى ما ذهبت

---

(1) كان مديرا لدار الكتب المصرية سابقا .

اليه من الحفاظ وعدم التفريط فى خصائص المرأة أو التهاون فى مميزاتها ويعلن الى الاحتفاظ بسر أنوثتها وقدسية أمومتها .. فضلا عن أن ميًّا الشرقية بلحمها ودمها ، والتى أدنى الى أن تصل كتاباتها الى الشرقيات ، قد يساعدها فى قبول ما كانت تؤمن به وتدعو اليه تلك النزعات الشرقية الكامنة والوراثة القديمة التى لا أشك فى أنهـا أصون لمكانة المرأة من النفوس وأحفظ لمنزلتها من حيث السمو والكمال » .

وهذا سؤال سابع مما وجه للسيدة هدى هانم شعراوى :

« ما الآثار التى تركتها مى فى الحركة النسائية فى مصر ؟ »

أجابت عليه :

« لما عرضت مى على خدمتها لحركتنا سنة ١٩١٤ م رحبت بها لمـا لمحته فيها من الصدق ، وتبينته فى كلامها من الاخلاص . وقد طابق فعلها — بعدئذ — قولها ، وصدق عملها حديثها ، فلقد انضمت الى صـفوفنا متواضعة الأخلاق ، قوية الروح عميقة التفكير ، وكانت تدهشنا جميعا بالذكاء الحاد المتفجر من كل اشارة من اشاراتها أو خلجة من خلجاتها أو نبرة من نبراتها ، وكان أكثر ما يدهشنا منها سمو روحها ودقة احساسها ، فلقد كانت مى تتأثر لـكل شىء وتحس بـكل شىء . وكنت أخشى على المسكينة من اجتماع هذه المميزات فيها .. نعم كنت أخشى أن يجنى عليها ذكاؤها ، أو يقتلها نبوغها . ألم يقل الشاعر « ذكاء المرء محسوب عليه » .؟

فلم يكن مجد « مى » لها وحدها ، ولم تكن شهرتها خاصـة بها ولكنه مجد تفتخر به المرأة الشرقية ، وشهرة تتمتع بها كل ناطقة باللغة العربية » .

وهذا سؤال ثامن مما وجه للسيدة ايمى خير :

« كانت مى باعترافهـا فى بعض كتبها كئيبة حزينة . فما أثر تلك الكآبة فى نظرتها الى الحياة ؟ وهل كانت طيبة الأمل فى الجنس البشرى أم خائبة الأمل فيه ؟ وهل وجدت فى غير الكتابة والتأليف عزاء لها عن أحزانها ؟ »

أجابت عليه باسهاب تقول :

« ان سبب حزن « مى » هو عزلتها فى الحياة ووحدتها وانفرادها . لقد كانت مى كقمة الجبل الأشم وهى ضاربة بعيدا بعيدا فى عنان السماء . لقد كانت شاعرة بسموها وذكائها ، شاعرة بتفردها فى عالمها . فعاشت منعزلة فى عالم خلقته من مواهبها .. ألا ترى الى قمة الجبل الشاهق كيف استغنت بسموها فى آفاق السماء فرضيت بوحدتها ؟

لقد كانت مى كذلك ، ولكنها مع ذلك لم تحتقر الآخرين بل كانت ترتاح الى أحاديثهم وتطمئن نفسها الى نفوسهم وتجد لذة فى مجالستهم .

ولا تنسى الناحية العاطفية الجنسية فى شقاء مى ، فلقد كانت فتاة تأمل أمل الفتيات وتحلم أحلام البنات . ولكن الأقدار باعدت بينها وبين الزوج الذى يسعدها ، والبيت الذى يؤمنها — وأعنى بيت الزوجية — والأطفال الذين يجعلون للحياة قيمة من حولها .. نعم حرمتها الأقدار من ذلك كله .. وهو شاق على كل امرأة ، عسير على كل فتاة .. سألتها مرة عن صحة أبيها وأمها فقالت فى لهجة فهمت منها كل شىء وأدركت كل معنى: «ليس لهما غيرى وليس لى غيرهما ..» آه ..كلمات قصيرة تحمل معانى كبيرة . كانت حياة مى لوالديها ، وكانت نسمات الحياة فى مى لوالديها ، وكان مجد مى لوالديها .. وكان تعبيرها لى فى هذه الجملة القليلة الضئيلة الألفاظ نوعا من الشكوى بحالها .. وهى شكوى لم تطل على حسب ما يصنع الشاكون والشاكيات . من المؤكد أنها لم تكن سعيدة فى حياتها ، ولم تكن هانئة حتى على المجد الذى أحرزته ، والعرش الذى احتلته . ان فى الحياة معانى عميقة . وكلما بعد الانسان عن فهم هذه المعانى وادراكها على وجهها الصحيح زادت متاعبه ونغصت أيامه وساعاته.. لقد ضحت مى بكثير فى حياتها وما أعظم ما ضحت به : ضحت بشبابها اللامع الوضىء وذكائها المتوقد الملتهب .. وقدمتها الى الحياة قربانا خالصا .. لقد كانت الكتابة تشغل ميًّا عن آلامها وأحزانها ، مسكينة مى . ولو رأيت جنازتها لرأيت البساطة ممثلة فيها ، كان هناك أحمد لطفى السيد باشا — وكنت معه — وأنطون بك الجميل وخليل مطران بك

ا

وبعض أصدقائها . لقد كنت راكبة مع لطفى السيد باشا فى سيارة خلف نعشها . ولما وصلنا الى الديار البعيدة الساحقة .. ديار الأبدية التى لا لقاء بعدها بأجسامنا — تلك الديار التى تفرق منا كل يوم حبيبا وتخطف عزيزا — لما وصلنا الى هناك دنونا من قبرها ولحدها الأخير ، فوقف عليه لطفى السيد باشا وذرف السخين من العبرات حينما تلقوها من بين أيدينا ليسلموها الى سكون الموت ووحشة القبر ، ويودعوا جسدها التراب » .

وختاما لهذه الاستفسارات الحية والأجوبة الثمينة نأتى بجزء من حديث الدكتور طه حسين الذى أفضى به دون تقيد بالأسئلة .. قال : « ظهرت مى فى حياتها الأدبية بمظهرين مختلفين أشد الاختلاف وأثرت بهذين المظهرين نفسيهما فى الحياة الأدبية العربية تأثيرا عميقا جدا ظهرت بعض صوره أثناء حياة مى وستظهر بعض صوره الأخرى بعد وفاتها بزمن قصير أو طويل . فأما أول هذين المظهرين فهو مظهر الأديبة البرزة التى لا تحتجب ولا تستخفى ولا تلقى الرجال عند المناسبات وحين تقتضى الظروف لقاءهم ، وانما تنظم الاجتماعات الأدبية التى يشترك فيها الرجال والنساء اشتراكا حرا سمحا فيه كثير جدا من الرقى والامتياز . تنظم هذه الاجتماعات فى بيتها وتشترك فى كل اجتماع يشبهها اذا كان خارج بيتها . وليس من شك فى أن الصالون الذى تستقبل المرأة فيه رجالا يتحدثون فيما يتصل بالحياة العقلية من قريب أو بعيد لم يكن جديدا فى حياتنا العربية بل لم يكن جديدا فى حياتنا المعاصرة . فقد عرف هذا القرن الذى نحن فيه صالونا من هذه الصالونات على الأقل ، كان بعيد الأثر جدا فى حياتنا السياسية والاجتماعية . وهو صالون الأميرة نازلى رحمها الله . فقد كانت تستقبل فى دارها بعابدين كبار المصريين والأوربيين . وكانت الأحاديث فى الصالون تتصل غالبا بالمسائل السياسية ومسائل الاصلاح الاجتماعى والدينى التى كان الناس يشغلون بها فى ذلك الوقت . وكان سعد وقاسم ومحمد عبده وحسن عبد الرازق وحسن عاصم يشهدون هذه الاجتماعات ويختلفون اليها ويشاركون فيما كان يدور فيها من الأحاديث.

وكانت آثار ذلك تظهر فى الحياة العامة لهؤلاء الناس . ولكن صالون الأميرة نازلى كان أرستقراطيا ان صح أن الأرستقراطية توجد فى مصر ، وهو على كل حال كان ضيقا مغلقا لا يصل اليه الا الذين ارتفعت بهم حياتهم الاجتماعية الى مقام ممتاز . ولم تكن الحياة الأدبية الخالصة تشغل الذين كانوا يختلفون الى هذا النادى .. فأما صالون مى فقد كان ديموقراطيا أو قل انه كان مفتوحا لا يرد عنه الذين لم يبلغوا المقام الممتاز فى الحياة المصرية وربما كانوا يستدرجون اليه استدراجا فيلقون الناس ويتعرفون الى أصحاب المنزلة الممتازة ويكون لهذا أثره فى تثقيفهم وتنمية عقولهم وترقيق أذواقهم وأنا أذكر أنى انما اتصلت بصالون مى على هذا النحو بعد أن نوقشت رسالتى فى أبى العلاء وشهدت مى هذه المناقشة وشهدت فيما يظهر بعض الحفلات التى أقامها لى الزملاء حينئذ وطلبت الى أستاذها وأستاذى لطفى السيد أن يظهرنى فى صالونها . وكذلك عرفتها فى هذا الصالون وترددت عليها فى أيام الثلاثاء الى أن سافرت الى أوربا . وقد رجعت الى مصر بعد سنة فأقمت فيها أشهرا ولاقيت فيها ميًّا أيام الثلاثاء كما كنت ألقاها قبل السفر . وكان الذين يختلفون الى هذا الصالون متفاوتين تفاوتا شديدا فكان منهم المصريون على تفاوت طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية وعلى تفاوت أسنانهم أيضا . وكان منهم السوريون وكان منهم الأوربيون على اختلاف شعوبهم وكان منهم الرجال والنساء ، وكانوا يتحدثون فى كل شىء ويتحدثون بلغات مختلفة وبالعربية والفرنسية والانكليزية خاصة . وربما استمعوا لقصيدة تنشد أو مقالة تقرأ أو قطعة موسيقية تعزف أو أغنية تنفذ الى القلوب . وقد أتيح لى أن أكون من خاصة مى بفضل الأستاذ لطفى السيد فكنت أتأخر فى الصالون حتى ينصرف الزائرون وما أكثر الليالى التى انصرف فيها الزائرون جميعا ولم يبق منهم الا الأستاذ لطفى السيد ومحمد حسن نائل المرصفى رحمهما الله وأنا .. وفى ذلك الوقت كانت مى تفرغ لنا حرة سمحة ، فنسمع من حديثها ومن انشائها ومن عزفها ومن غنائها . ويظهر أنى لن أنسى صوت مى حين تغنينا أغنية لبنانية مشهورة « يا حنينة » وتغنينا فى اللغات المختلفة وفى اللهجات المختلفة أيضا » .

وفى هذه الاجابات المختـــارة تظهر لنا جوانب هامة من حيـــاة مى الأدبية والنفسية والاجتماعية بل والشخصية أيضا .. وتلقى أضـــواء على محيطها وعلى عصرها الذى عاشت فيه ، ونعمت وتألمت بوجودها بين جنباته . وقد سبقت وقتها ، مما مهد للازمات المختلفة أن تتدخل فى حياتها وتقعد بها عن تلك الأحلام الجميلة التى كانت تريد تحقيقها — وكان حقيق بها أن تنالها .

وسنوفى الحديث عن هـــذا بعد أن نستقصى خبر العاطفة فى حياة (مى) فى الفصل القادم .

وما ان رحلت «مى» عن هذه الدنيا حتى صحا الكثيرون يفتقدونها، وكان أجمل تعبير عن ذلك : حفل التأبين الذى تحـــدث فيه كبار الأدباء عنها . ووفوا بحقها على الأدب النسوى وعليهم هم أنفسهم ، فقد قال الشاعر خليل مطران يستذكر ناديها الأدبى :

« أفقر البيت أين ناديك يا مى اليـــه الوفـــود يختلفـــونا
صـــفوة المشرقين فيـــه ضروبا ويدار الحديث فيـــه شـــجونا
وتصيب القـــلوب وهى غراث من ثمار العقول ما يشتهينا »

هذه قطرة من فيض غامر سالت به أقلام الأدباء وعبرت به مشاعرهم عن مكانة هذه الفنانة الأديبة المبدعة ورائدة الحركة الفكرية فى الشرق العربى الحديث ..

الحب في حياتها

هل أحبت مي ؟ وكيف ؟ ومن هو هـذا الذى تعلقت به وأحبته كمجهول ؟ وأولئك الذين أحبوها وتغنوا بهـا كفاتنة وأديبة جمعت بين فضيلتى الجمال والفكر — هل من بينهم هذا الحبيب الذى كانت هى تتوق اليه وتنشده الى الحقيقة ؟

لقد أحبها الكثيرون ، وكلهم أدباء ومفكرون ..

ولكنها هى «مى» ؟ من كانت تقصد — فى الواقع — وهى تعبر عن صدق احساسها وجيشان مشاعرها نحو ذلك الانسان الأوحد الذى تؤثره وترى فيه كل شيء فى حياتها ؟ والذى تعنيه هنا بقولها [1] :

« سأستعيد ذكرك متكلما فى خلوتى لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك .. حكاية البشر المتجمعة فى فرد واحد ، وسأتسمع الى جميع الأصوات علّى أعثر فيها على لهجة صوتك . وأشرح جميع الأفكار وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديرى لآرائك وأفكارك .. وسأبتسم فى المرآة ابتسامتك فى حضورك .. سأتحول عنك الى نفسى لأفكر فيك ، وفى غيابك سأتحول عن الآخرين اليك لأفكر فيك » .

من ترى هو .. هذا الذى وحده تجمعت فيه حكاية البشر ؟ هـذا المحبوب الأثير الذى تدعوه وتناجيه وهى تشرح حالتها وتقول :

« سأدعوك أبى وأمى متهيبـة فيك سـطوة الكبير وتأثير الآمر وسأدعوك قومى وعشـيرتى وأنا أعلم أن هؤلاء ليسوا دواما بالمحبين ،

---

(١) من فصل (أنت أيها الغريب) فى كتابها « ظلمات وأشعة » — وهذا الفصل هو الذى نقل عنه الرافعى ما تخيله أنها تعنيه هو .

وسأدعوك أخي وصديقي أنا التي لا أخ لي ولا صديق ، وسأطلعك على ضعفي واحتياجي الى المعـونة أنا التي تتخيل فيك قوة الأبطـال ومناعة الصناديد ، وسأبين لك افتقاري الى العطف والحنان ثم أبكي أمامك وأنت لا تدري ، وسأطلب منك الرأي والنصيحة عند ارتباك فكري واشتباك السبل » .

الى أن تقول وهي تكاتم هذا السر حتى عن ذلك المحبوب الحالم المجهول [1] :

« وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخورا لأنك أوحيت اليّ ما عجز دونه الآخرون .. أتعلم ذلك ، أنت الذي لا تعلم ؟ أتعلم ذلك ؟ أنت الذي لا أريد أن تعلم ؟ » .

انه الحب الوجداني في أجل معانيه وفي أسمى عواطفه البريئة .. ولكن هذه الأديبة الفنانة .. الجميلة الفتانة .. من تعشق ؟ من هو فارس أحلامها والملهم الموحي لها حتى تقول بصدق مشاعرها وهتاف أعماقها :

« سأتخيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب وكيف تشتاق وكيف تحزن وكيف تتغلب على عادي الانفعال برزانة وشهامة لتسلم ببسالة وحرارة الى الانفعال النبيل .. وسأتخيل ألف ألف مرة الى أي درجة تستطيع أنت أن تحب » .

هذا السر في حياة (مي) لا نجد من يكشف عنه حقيقته !! ان لم تكن هي قد أوضحت شيئا الى بعض من كانت تكتب لهم ، أو كتبت هي في مذكرات لها لم تنشر .. وكل هذا لا يزال يكتنفه الغموض وسيظل غامضا حتى يظهر الخبر الحقيقي من تلك الكتابات — ان كانت توجد وتتضمن هذه الناحية الهامة في عاطفة أديبتنا الكبيرة الساحرة .. ولا نبعد عن جانب الحقيقة — اذا اعتقدنا أن (مي) أحبت في مطلع صباها ورسب هذا الحب في أعماقها .

---

(١) فهي تواقة اليه دائما وتستذكره كلما هاجت بها الخواطر وتبحث عنه — فلا تجـد الا الحرمان .

فهى تواقة اليه دائما وتستذكره كلما هاجت بها الخواطر وتبحث عنه فلا تجد الا الحرمان ..

ولكن لنا هنا أن تتساءل : من كانت (مى) تضمر له هذا الحب العذرى الخفى وتتخيله آلاف المرات على مشاعره المختلفة ؟..

أهو شبلى شميل (الشيخ) ، أم مصطفى صادق الرافعى — الذى ألهمته الكثير — أم ولى الدين يكن ، أم أنطون الجميل الذى أشيع فترة أنه سيتزوج بها ، أم جبران خليل جبران (المغترب) والذى لم تره ولم يرها .. أم غير هؤلاء ممن كانوا يلتفون حولها ويعجبون بها من الأدباء ورواد ناديها الأدبى ..؟

وهى فى حيرتها العاطفية لا تريم ..

ان أحدا لا يستطيع — قبل التثبت — أن يقرر شخصا بعينه ويؤكد أن هذا هو الذى أحبته (مى) .. كانت هذه الناحية العاطفية من جهتها هى شىء عميق فى نفسها ، بعيد الغور فى أعماقها .. كانت تدارى فى كل شىء حتى فى حبها .. كبتت هذا الحب وتعذبت به فى صمت ، وعبَّرت عنه فى كتاباتها ، وصورته كما هو على حقيقته الكأس التى يحلم بها كل محب .. فهى تتمناها تقترب منها .. وترجوها لو تكون دانية المنال تتملاها عن كثب وترتشف شيئا من حلاوتها ، ويبترد بها حر صدرها ويروى صداها وتهدأ أشواق جوانحها .. ولكن (مى) ظلت تخشى من الوسط حولها ، وتكاتم سرها .. والمرأة يومها حديثة عهد بفكرة التحرر — ولم تجرؤ بعد — كثير من الطبقات على الغاء الحجاب والخروج لمجالسة الرجال ..

والآنسة مى أديبة غيور على جنسيتها وحصانتها .. وهى المحافظة التى تفهم حقيقة رسالة المرأة وواجب أنوثتها .. وتدرك أن تبذلها واسرافها فى التحرر ليس من الأدب فى شىء .. لذلك فان (مى) المفكرة الأديبة تصور الكمال ومثالية الأدب النسوى ..

ولقد كان حولها الكثيرون ممن يطمعون فى القرب منها الى أكثر مما أباحت ورضيت — وما بها من شين — ومن يريد الزواج بها ومن يستلطفها ويرف حولها كالفراشة حول المصباح ..

وكان الأديب الطبيب شبلى شـــميل قد جاوز الخمسين حين عرف (مى) وهى فتاة لم تستكمل الأنوثة ، فأحبها وتفتق ذهنه عن شعر رائع فى وصفها ، وكان كلما نظم جديدا كلمها فى التليفون وقرأ لها قصيدته ، وكانت تقول هى عن ذلك : « كنت أستمع اليه وأطرب ثم أضحك وهو يلقيها فى أذنى كأنما هو واقف على منبر » .

ولم يطل العمر بالدكتور الشميل اذ توفى بعد سنتين من معرفته بها . وكثر المعجبون (لمى) وقالوا عنهـــا الكثير فى براءة .. وأنشدوا مستلهمين منها فيضـــا زاخرا من المشاعر الرفافة والأحاسيس الجميـــلة والأحلام الراقصة والأشواق اللاهبة .. كان كل ذلك فى موضع ، وحب (الرافعى) فى موضع آخر : ســـامق على كبير . حب الأستاذ مصطفى صادق الرافعى سما على كل من أحبوا ..

حب للحب .. حب للفن .. حب للالهام .. حب للألم ..

الرافعى الذى كان فى اعتباره هذا الحب ، مصدرا للوصف والابداع والتصوير .. هو الدافع الروحى للجولان فى الهيـــكل الأقدس وأعمال الفكر فى الانتاج والتفنن والتحبير .. الحب روحانية عاش بها الرافعى وفى قلبها صورة الأديبة الجميـــلة تتلألأ وتتضوع بعطور الجنـــان حتى يقول لها :

« ان شوق الأرواح العاشقة يحتاج دائما الى تعبير جميل كجمالها ، بليغ كبلاغتها ، ينفذ الى قلب الحبيب بقوة الحياة سواء رضى أو لم يرض ، وهذا الشوق النافذ كان الأصل الذى من أجله خُلق العطر فى الطبيعة ، فحينما تســـكب الجميلة قطرة من الطيب على جسمها تنســـكب فى هذا الجسم أشواق وأشواق من حيث تدرى ولا تدرى » .

والرافعى يصف هذه الحبيبة فيقول :

« وجه منضر يفزع لروعة حسنه من يراه ، كأن شيئا بدعا لم يكن ممكنا فأمكن أو كأن فى حمرة خديه وشفتيه خمر القلب رؤيتها ، شربها ، وفيها السكر بالجمال والنشوة بالهوى ، فمـا هو الا أن ينظر وجهك الناظر حتى يخالط قلبه » .

الى أن يقرر الرافعى الصلة القوية التى تربطه بالحبيبة هذه فيقول :

« حولك ما نحسه ولا نعرف منه الا أنه حولك وحسب ، والجو الذى أنت فيه ينعكس عن جمالك فى صورة سحرية ، فلو أننى طفت العالم كله لرأيته من حولى أينما كنت ، وأبصرت وجهك دائما أمام عينى كأنى محدود بك فى حدود مسحورة تدعك حيث أنتِ وتمضى معى حيث أكون » .

ونعود لنتساءل : أكانت (مى) حقا تعنى الرافعى بمقاليها اللذين نقلهما عن كتابها «ظلمات وأشعة» الذى أهدته له كجواب على رسالة ؟ ألا يكون حقيقة أسلوبها بهذه الطريقـة فى التعبير عن مشاعرها نحو الرافعى ؟ — وهو الذى كان قد بعد عن مَجلسها وانساق فى تيار كبريائه ولم يعد يراها ، أو تراه هى الا على صفحات ما يكتبان . هذه هى تقول فى احدى تينك المقالتين :

«أنت لم تكن تعبأ بوجودى وأنا لمأكن أعبأ بوجودك.. ولكنلماذا كنت أخاشنك متعملة الاعتراض وعدم الانتباه ؟ لماذا وأنت مثال الوداعة والتهذيب كنت تكفهر لحضورى وتنقبض كمن يود أن يتجنى علىّ ، أو كمن يخشى أن يرمى بالبشاشة والمجاملة . ثم يعود نظرك فى المرة التالية يستفحصنى عن زلته — أنا التى كنت أغتفر لك وأتناسى مرغمة قبل أن تحدث نفسك بالاستغفار » .

الى أن تختتم مقالتها قائلة :

« من أنت ؟ وماذا كنت ؟

أكنتَ وحيا من فيض شاعريتى المكتظة ، وطيفا من أطياف شوقى وعذابى ؟ أم أنت حقيقة ملموسة مرت فى أفق حيـاتى مرور السفن فى

البحر الى الشواطىء النائية ؟ لقد كنت وحيا من فيض شاعريتى المكتظة ، وكنت طيفا من أطياف شوقى وعذابى وأنت حقيقة محسوسة مرت فى أفق حياتى مرور السفن فى البحر الى الشواطىء النائية .. يا مهذبى » .

أكانت هى تعنى الرافعى — كما اعتقد هو — وكما كان يؤكد هو بأن « مى » تبادله حبه فى صمت وفى خجل من المحيط الذى يكتنفها ؟

قد يكون الرافعى هو هذا الذى كانت تناجيه فى وحدتها وتكتب عن عذابها وأشـــواقها ليقرأ ويعرف .. وقد يكون غيره عاشت تكتم خبره وتتألم به وتبحث عن طيفه وخيالاته فى فراغها الكئيب .

ولكن حب الرافعى الذى غناه للاجيال.. أفاض الكثير وأنتج روائع الأدب الغزلى العربى — وان كانت مدة صلته بها لم تزد على سنة واحدة هى سنة ١٩٢٣م التى كان خلالها مراحه ومغداه حتى غضب وتكبرت كبرياؤه وأصبح لا يفهم الحب الا أنه هــذه الكبرياء الى جانب الايحاء والشعر والفلســفة .. كما ظلت (مى) تفهم الحب على أنه آلام وكبت وشوق ، حتى انتهت حياتها وهى تتعــذب بالوحدة وتشــقى بنفســها المسكينة الشاعرة .

مأساتها ووفاتها

حيـاة (مى) كلها كفاح وبذل وتضحية .. انه الثمن الغالى الذى يدفعه العظماء لحياتهم الثانية الخالدة .

وزاد على « مى » المأساة التى ما كنا نرجو أن تصل اليها ..

هذه الأديبـة العبقرية ذات الذكاء الفطرى والاحساس المرهف ، وصاحبة القلم المبدع ، والفكر العامل والروح المتوثبة .. حتى لقد قالت عنها السيدة هدى شعراوى :

« كنت أفزع أحيانا من تجمع كل هذه الصفات فيها وأخشى عليها تأثير تلك القوى الجبارة التى كانت تتنازع جسمها وقلبها وروحها » .

.. وهذه (مى) عندما تجاوز الأربعين نلحظ أن هنـاك تغيرا قد حدث ، وقل رواد ناديها .. اذ أنها أصبحت تميل الى العزلة أكثر من ذى قبل متأثرة بدراستها وبما ترى ويدور حولها ، وقد ملت غزل البعض — من رواد ناديها — والذى يصرح لها بعواطفه ، كما غرب عنها البعض ممن آثر كتمان لواعجه والبعد عن محيطها .. وازدادت هذه العزلة شيئا أكثر بعد وفاة والدها عام ١٩٣٩ — وهى فى الثالثة والأربعين — وما عتم أن لحقت به أمها بعد أقل من عام .. واذا بالجو حولهـا قد تلبد ، وتضاعف عليها هِمّ الوحدة — وقد فقدت حنان الأمومة وعطف الأبوة ورعاية الرفيق الأمين ، فأغلقت ناديها عملا بمبدأ التحفظ الذى تدين به — اذ لا شريك لها فى الدار — وخشية أيضا من أن يتطرق أحد لينهش فى سيرتها ، وقد غدت وحيدة بين حيطان نزلهـا ، لا أنيس معها غير مكتبتها ويراعها وقرطاسها .. وكانت تود لو عاشت بكل ذاتها ومشاعرها وأحلامها — لفنها الأدبى ولجهادها الفـكرى ، وتخلص لهمـا جهودها

ونفسها كلها .. ولكن هيهات لمثلها أن تهـدأ وتطمئن .. وان كانت تجد التسلية فى الرسائل التى تحمل عن بعد عواطف المحبة والشوق — فى كتب أو فى مخطوطات من الرافعى ومن جبران ومن ولى الدين يكن ، ومن غيرهم أيضا .. ولكن هؤلاء الثلاثة هم أعلق الناس بها من غيرهم .. ولقد توفى جبران مغتربا سنة ١٩٣١ بينمـا الرافعى غاضب مسرف فى كبريائه منذ اليوم الذى خرج فيه من عندها ثائرا لحبه فى غيرة مدمرة ..

فى منتصف عام ١٩٣٢ م غادرت (مى) القاهرة — الى أجل — تجوب بعض البلدان الأوربية وتنفس عن نفسها .. تطلب السلوى وتنشد العزاء ، بل وتبعد أيضا عن أولئك الذين أرادوا التـأثير والضغط عليها -- بعد وفاة والديها — وهم من ذوى قرابتها ، لتقبل أطماعهم فيها وتعود معهم الى حيث يقطنون بلبنان ..

وعادت (مى) من رحلتها ، ونفسيتها هى هى لم تتغير .. دأبت على عزلتها وتشاؤمها — وقد انصرف عنهـا كل أولئك الذين كانوا يغشون مجلسها فى أمسيات أيام الثلاثاء .. ولم تعد تستقبل زائرا أو تتيح الفرصة لمن يريد اللقاء أو تجديد الذكرى .

وهكذا — بدافع تحفظها وصونها كرامتها — ظلت فى وحدتهـا تعانى هذه التجربة القاسية المريرة . فلا صديق ولا قريب ولا زوج ولا حبيب ، وهى تقترب من الخمسين .. بمعنى أن نضارة الشباب قد ولت أو أوشكت ، وأن الأمل فى قطـار الزواج قد فات ، وأن ذلك الذى تهواه وتكاتم أمره قد ابتعد عن طريقها .. فاذا هى تضرب أيضا عن الكتابة ولا تريد أن تتعزى بشىء ، ثم تقطع صـلتها بكل الناس ، وتبقى تعيش من أعصابها وحزنها .. وقد أصبح يطاردها ابن عم لها لمراضاتها لتوكله عنها للقيام على ميراث أبويها ، ولكنه يئس منها ، فأشاع عنها وادعى انها مصابة بالجنون ، مؤيدا حجته برفضها مقابلة الناس وتوتر أعصابها !.. ووجدوا بهذا الادعاء ما ساندهم على نقلها الى لبنان وادخالها مستشفى العصـفورية ، وكان ذلك فى أوائل عام ١٩٣٦ م ، وما من أحد ينبرى للدفاع عنها أو للتهوين عليها فى محنتها هذه ..!

وهنا تأزمت نفسيتها وقد ضاقت بالحياة من غدر الناس ومن تعديهم وتآمرهم عليها ، وهى البريئة النبيلة والأديبة المثالية .. وأصابها نوع من الهستريا — وهى فى وجومها الدائم ، تبكى ثم تضحك فى آن .. ولكن الراحة وازالة أكثر أسباب قلقها ثم العلاج الكامل : كل ذلك جعلها تستعيد شيئا فشيئا هدوء أعصابها وكامل وعيها ، حتى انها كتبت — وهى فى المستشفى — مذكراتها « ليالى العصفورية » ، ثم تغادره فى أوائل عام ١٩٣٩ م وقد شفيت تماما ، عائدة الى مصر التى أحبت الاقامة فيها ، وشهدت فى ربوعها مجدها ، وان كان الكثيرون قد نسوها وأهملوا شأنها .. ولكنها وهى المثقفة المهذبة التى تصفح وتتسامح ، لم تؤاخذ أحدا ممن تنكر لها أو نسيها — ولا فكرت حتى فى اللوم .. ولكنها بقيت على حالها من الوحدة وادمان المطالعة دون أن تكتب أو تهتم بنشر شيء ..

ومما تجدر الاشارة اليه : ذلك الحديث الذى صرح به الصحفى اللبنانى المعروف الأستاذ سعيد فريحة — وهو يطلعنا على خبر له أهميته فى مأساة (مى) .. كتب يقول :

«اتصلت بى «مى» فى سنة ١٩٣٦م وكان ذلك فى لبنان يوم جاءت اليه بدعوة من قريب لها اسمه الدكتور جوزيف زيادة — وهو رجل وسيم لطيف .. قيل انه كان من عشاق مى ، وانها كانت تبادله الرسائل ، وكان منافسا لجبران ، وكان سلاحه فى المنافسة قرابته لمى ووسامته ، ومعظم عشاقها كانوا بعيدين عن هذه الصفات ، ولم يكن أديبا ، وأرادت هى أن تنصرف عن الأدباء — ولو الى حين — فجاءت الى قريبها فى لبنان بعد أن أوشكت أن تستنفد جمالها . فأكرمها وأكرم فنها وأنزلها فى بيته ، وفجأة اختفت منه .. وقيل انها دخلت مستشفى المجانين ، ومرت عدة شهور وذات يوم التقى بى المحامى (بهيج تقى الدين) فسألنى : هل تريد أن تقابل مى ؟ قلت : وهل مى هنا ؟ قال : انها فى مستشفى الجامعة الأمريكية . قلت : اذن غير صحيح انها فى مستشفى المجانين ، وذهبت معه الى مستشفى الجامعة الأمريكية ووقفت عند باب الغرفة ودخل هو

ليستأذن مى ، واذا بى أراها من بعيد تدخل معه فى جدل عنيف ، فلاحظت أنها ترفض مقابلتى ولم أشأ أن أضيع الفرصة ورحت داخلا .. وما ان اقتربت من سرير مى وهى جالسة وقد وضعت وراء ظهرها وسادة حتى رأيتها تهدأ وترد على تحيتى بمثلها .. ثم قالت : كنت أرفض أن أقابلك لأنك صحفى ولأنى عاتبة على الصحافة وصحافة لبنان بنوع خاص .؟ لبنان موطنى الأصلى .. لبنان بلد آبائى وأجدادى .. لبنان الذى جئته أنشد الراحة والاستجمام فوجدت نفسى أقيد وأساق الى مستشفى المجانين ظلما وبهتانا فلا يرتفع صوت الصحافة اللبنانية من أجلى أنا الصحفية ومن بيت أركانه من الصحفيين .

ويومها بدأت مى تروى قصتها بأسلوب ساحر .. كانت أعظم محدثة تختار ألفاظا فيها رنين موسيقى رغم أنها كانت تصف مأساة، فلم تستعمل كلمة نابية واحدة فى حق الذين ظلموها ، فهى تعتقد أن الدكتور جوزيف اتهمها بالجنون بعد أن أخذ منها توكيلا — بالاستيلاء على ممتلكاتها . وتكلمت مى ووصفت كيف ألبسوها قميص المجانين وكيف شهدها عشاقها فى لبنان وهى تسير باكية فى موكب رهيب .. فوجدت نفسى أشترك فى المأساة وكنت يومئذ أعمل فى جريدة « الحديث » وذهبت وسجلت كل ما حدث .. وكان دكتور زيادة قد أقام الدعوى مطالبا باعادتها الى المستشفى .. وكانت معارضتنا لاثبات سلامة عقلها اننا دعونا الناس ليحضروا الى المسرح الكبير للاستماع لمى .. وزحفت الخلائق من كل جهة ، وصعدت مى الى المسرح وألقت خطابا رائعا تكلمت فيه عن كل شىء الا عن مأساتها ، وكان بين الحاضرين النائب العام الذى كان يرأس المحكمة التى تنظر فى قضيتها — وهو الأستاذ راجى الراعى . وكان أديبا وشاعرا ، فتقدم الى المحكمة وألقى كلمة خرجت بعدها مى الى الحرية » .

انه لجرم كبير هذا الذى نالت منه (مى) الكثير .. ويقع بعض هذا الجرم على الصحفيين والأدباء الذين سكتوا عما جرى لها وكأن شيئا لا يعنيهم ، وكان الواجب ، بل المفروض عليهم أن يقاوموا ويدفعوا عنها

ذلك التيار المعاكس الذى هددها ثم رمى بها فى أحضان التيه المحزن والغربة المؤلمة !!

وروى الأستاذ سلامه موسى أنه ذهب — وبرفقته الأستاذ أسعد حسنى لزيارة (مى) بعد عودتها الى القاهرة — وهى تسكن فى شارع أبى السباع قال : « وفتحت هى لنا الباب ، فرأيت شخصا لا أعرفه : رأيت سيدة بيضاء الشعر كأنها فى السبعين ، فسددت عينى ، فغمزنى أسعد وهمس : الآنسة مى .. الآنسة مى .. فسلمت وتضاحكت ، ولكنها هى أدركت كل شىء ، واستولى علىّ اكتئاب وخجل وجمود ، وارتسمت فى نفسى صورة لعذاب النفس الذى لقيته هذه المسكينة فى مرضها » .

الى أن قال: «وخرجنا نحن الاثنين فى أسف وغم لهذه الحال التى كانت عليها (مى) ، ولكن أسفى أنا كان مزدوجا ، فانى بقيت طوال الساعة وأنا أفكر فى جمودى وكيف أنى لم أتنبه عندما رأيتها بالباب فأحييها تحية اشتياق وتقدير . وأنها لا بد قد عرفت من جمودى أنها قد تغيرت وان جمالها وحلاوتها وظرفها ورقتها قد زالت ، وملأتنى هذه الخواطر مرارة بل كراهة لنفسى ، فلما كان اليوم التالى قصدت الى منزلها وأنا طوال الطريق أعد للقاء وأرجو أن أقشع به غمامة الأمس ، وهو مع ذلك لقاء لفتاة مريضة مزعزعة ، فلما فتحت لى الباب ، عانقتها فى حنان صادق وحب مصطنع ، وتراجعت هى وتأملت وجهى فى ابتسام وهى تقول : مرسيه يا أستاذ » .

ثم يروى الأستاذ أسعد حسنى انه كان قبل ذلك قد أرسل لها مجلتى الثقافة والمجلة الجديدة ، وقد كتب فيهما مقالين عنها ، ورسالة يدعوها فيها الى (أن تنسى الليل الحالك وأن تعود الى سيرتها الأولى من التحليق فى سماء الأدب والعلم) .. ويقول انها كتبت له ردا على رسالته تقول فيه بتاريخ ٣٠ يونيو ١٩٣٩ م :

« .. شاكرة لكم — وبأى تأثر — تلك الدموع التى تقولون انكم ذرفتموها حزنا على ما شاءت الأقدار أن أختبره من حوادث ووقائع ، رغم

أن الحياة كما تقولون لم تدع فى أجفانكم دمعة .. وقاكم الله السوء أيها الصديق ، أتمنى ألا تسيل تلك الدموع البارة الا على آلام الغير ، لأن فى مثلها شبه تفكير عما يقترفه بعض هذا الناس من آثام ينظمونها ببراعة شيطانية ، أعمالا مشروعة فى ظل القانون .. ولا يدهشنا ما يصنعه نفر من الأطباء أحيانا .. ان علم الطب لا يبدل من خلق الانسان ، بل علم الطب وكل علم آخر يتكيف ويتلون صاحبه ، منتحلا صبغة النفس التى سبك فيها . ولست أشك فى أنكم لو اتصل بكم ولو طرف من خبرى على وجهه الحقيقى أيام كنت غارقة فى المحنـــة الى ما فوق رأسى — لكانت حدت بكم — انسانيتكم الى النجدة ولكنتم من المغيثين .. حسبى مثل هذه الفكرة أتأسى بها عما كان من نسيان أصدقائى لى ، أو ما كان يؤلمنى مما كنت أحسبه من أصدقائى ، بل حسبى مثل هذا الخطاب النبيل الكريم ومثل هذه التحيـــة الطيبة الجميلة ، لأنسى الـــكثير من حوادث مريرة لا نبل فيها ولا كرم .. ولنشكرن البارى على المحن بعد انقضائها ، انها توسع منا النفس وتجلو الفكر وتسمو بالمدارك الى أفق رحراح النور ، نفضى عنده عما أبصرناه فى بعضهم من مشاهد خلقية كئيبة مظلمة .. »

* * *

فى هذا الجو الانفرادى القاتم .. وفى هذا المنعزل عن دنيا الناس ومجتمعاتهم .. لم يطل الأجل بالأديبة الـــكبيرة التى انطوت على نفسها بحزن عميق — حتى أراد الله لها الراحة الكبرى بالابتعاد عن كل ما رأت فيه أحلامها تشعشع حينا ثم تنطفىء .. وعن العالم الذى نسيها فى أحلك أيام حياتها ، وقد كانت هى الضوء الذى تستنير به طرقات حياتهم ويمدهم بمعين من الأفكار والمشاعر والأمانى ..

رحلت (مى) الى العالم الآخر مودعة الحياة بغصة الحياة — فى يوم الأحد ظهرا : اليوم التاسع عشر من أكتوبر سنة ١٩٤١ م وهى فى بحر سنها الخامس والخمسين .. وشيعت جنازتها وسط جماهير غفيرة ممن كان يعرفها أو يقرأ لها أو اتصل بها أو عاشرها من الأدباء والكبراء والأثرياء ،

وكأن موتها هى قد أيقظهم عليها — وكلهم فى ذعر من فقدها ، وبكاء على رحيلها الأبدى ..

وفى الرابع من ديسمبر من السنة نفسها ، أقام كبار أدباء مصر حفل تأبين عظيم لفقيدة الأدب النسوى الرفيع وكبيرة أديبات عصرها الآنسة (مى) — مارى زيادة — التى رحلت الى عالم الخلود بجسمها ، وهى باقية للحياة بفنها وأدبها المثالى وبانسانيتها الفياضـــة بالحياة والمحبة .. بالجمال والمعرفة ..

عليها رحمة الله وعفو منه ومغفرة .

عبد السلام هاشم حافظ

مطابع شركة الاعلانات الشرقية